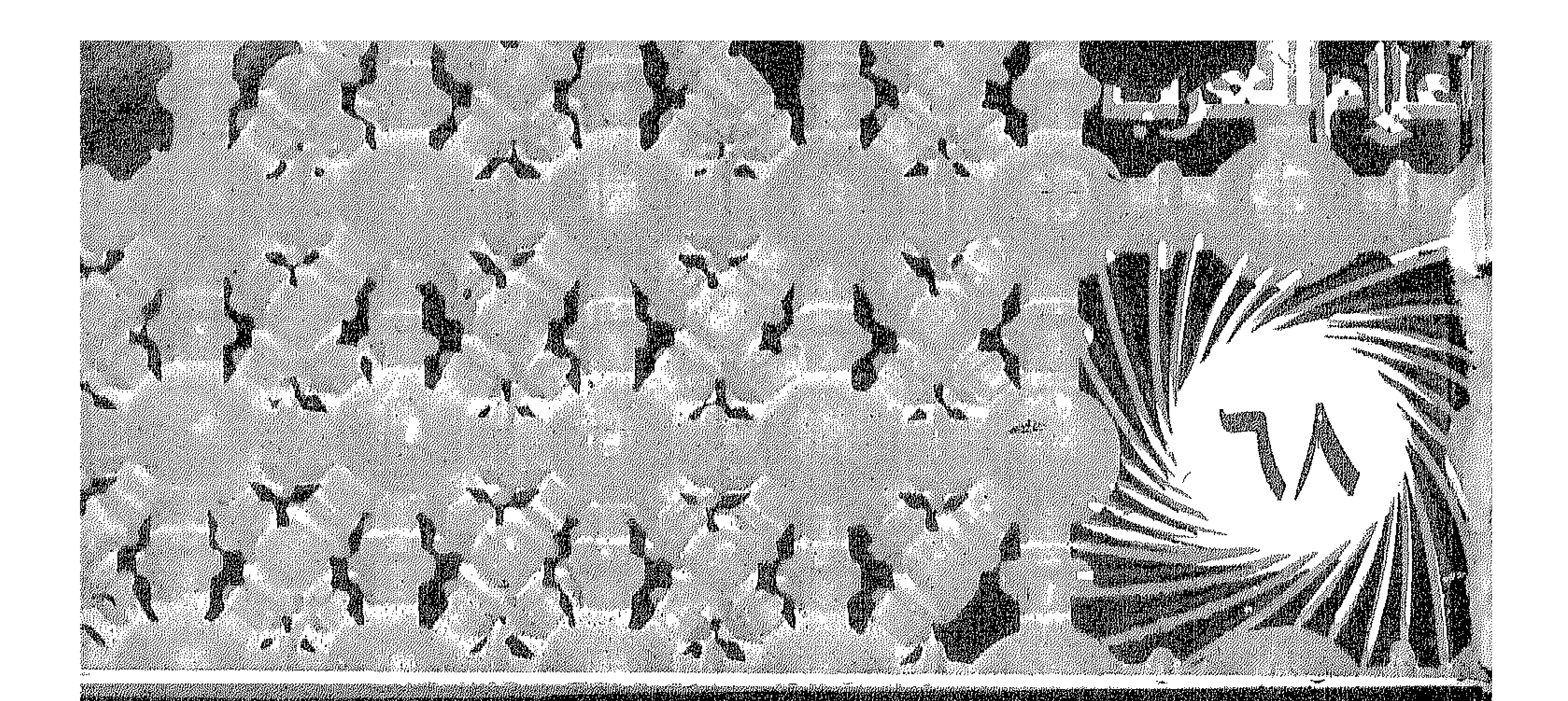


موسى بن نصير

مؤسس المغرب العربي

بقلم

الدكتور ابراهيم أحمد العدوي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

اغسطس ١٩٦٧

أعلام العرب

٦٨

موسى بن نصير

مؤسس المغرب العربي

بقلم

الدكتور ابراهيم أحمد العدوى

دار
الكاتب
العربي
للطباعة
والنشر

مقدمة :

تمثل سيرة موسى بن نصير اصرار الأمـــة العربية الجبار على التغلب على ما يعترضها من أزمات وخطوب ، وقدرتها الهائلة فى الصمود أمام كيد الأعداء ، ثم الانطلاق الرائع نحو المجد والسؤدد ، فى عزم ثابت وايمان صادق متين . فقد تصدى للفتوح العربية فى شمال افريقيا ، قبل أن يظهر موسى بن نصير عــلى مسرح الأحداث ، أعظم قوة فى العالم اذ ذاك ، وهى امبراطورية الروم ، التى أفرغت كل ما لديها من بطش وكيد ودس للحيلولة دون تحرير العرب لتلك الأرجاء ، وحرمان العـــرب أيضـــا من ثمـــار جهادهم وكفاحهم هناك بأساليب تستهدف بث اليأس والقنوط فى النفوس .

غير أن الأمـــة العربية لم تلبث أن أنجبت موسى ابن نصير ، الذى استطاع بفضل ما انطوت عليه نفسه من روح عربية أصيلة أن يحيل عثرات الجيوش العربية الى انتصارات مظفرة متلاحقة ، وأن يطرد الروم ، أعداء العرب الألداء ، نهائيا من شمال أفريقيا ، ويترك لمن وراءه من أجيال الأمة العربية نموذجا رائعا فى الكفاح والنضال ، يستمدون منه كل أســـباب ثقة النفس بالنفس ، والتطلع دائمـــا وأبدا الى المستقبل ، بعين ملؤها التفاؤل ، والايمان الصادق بغد مشرق بهيج .

وتعرض الصفحات التالية جهاد موسى بن نصير فى سبيل اعلاء كلمة العروبة والاسلام فى ركن من أهم أركان

العالم ، وهو غرب البحر المتوسط ، حيث وضع الأساس المتين هناك لأهم مركز من مراكز الاشعاع الحضارى فى العالم . فاستطاع موسى بن نصير ، بفضل ما تحلى به من مواهب عالية فى فن القيادة والسياسة والادارة ، أن يضم شمال أفريقيا الى رقعة الاسلام ، وأن يجعل من أهلها فى سرعة مدهشة ((الجناح الأيسر للاسلام)) ثم أثبت موسى بن نصير جدارة فريدة على رعاية هذا الوليد الجديد وتدريبه ، حتى شب عن الطوق ، وجعل المغرب العربى يبرهن عمليا أنه أصبح منذ صدر شبابه عضوا فعالا فى أسرة العروبة ، وتقاسم مع أبنائها شرف حمل راية الاسلام ، واعزاز كلمته ، وحماية أرض العروبة ومقدساتها .

ومن يمن الطالع أن تصدر هذه السيرة الخاصة بموسى بن نصير فى الوقت الذى انطلقت فيه الجزائر الفتية ، مع جميع العرب من المحيط الى الخليج ، للتصدى للعدوان الثلاثى الجديد على الأمة العربية ، لتعيد بتضامنها مع القوى العربية ، الأمة العربية الى سيرتها الأولى العطرة ، الحافلة بالبطولات والأمجاد .

ابراهيم أحمد العدوى

« الحرب خدعة » . فكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا غزا اخذ طريقا وهو يريد أخرى ، ويقول : ان الحرب خدعة. وحرص الرسول الكريم على أن يعهد بقيادة الجيش لمن تتوافر له تلك الخبرة ، فقد أثر عنه قوله عليه الصلاة والسلام : « انى لأؤمر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عينا وأبصر بالحرب » .

ودأب قادة القرن الأول الهجرى على السير وفق هذه القاعدة والحصول على أعلى درجة فى المؤهل المطلوب لها . فكان بعضهم يقف بين الجند قبل الهجوم ، فيحمد الله ويثنى عليه ، ثم يقول : انى أسير بالغداة فى طريق كذا ، ويقصد بذلك تضليل جواسيس الأعداء ، فاذا أصبح سلك بالجند طريقا غير ما سماه ، ويروغ من الجواسيس كما يروغ الثعلب . وارتبط بهذه الخبرة وبمكايد الحروب ركوب الخيل والقدرة على استعمال آلات القتال المعروفة اذ ذاك ، وبخاصة اجادة القتال بالسيف والرمح والنشاب .

ثانيا : القدرة على اعداد الجند ، وذلك وفق التعليمات التالية :

(أ) التحقق من السلامة الجسمانية أو اللياقة البدنية ، واجادة استخدام الأسلحة المعروفة .

(ب) تفقد الجيش ومن فيه ، وابعاد من يبدو عليه الخوف والخذلان ، أو من يشك فى سلوكه أو الجهة التى ينتمى اليها .

(جـ) ألا يمالىء القائد شخصا ممن يعمل تحت امرته بسبب القرابة أو النسب الرفيع ، لأن ذلك يوقع الشقاق بين الجند ويفسد سيرهم للقتال .

(د) الرفق بالجند فى أثناء السير ، « فلا يجد السير فيهلك الضعيف ويستفرغ جلد القوى » .

(هـ) أن يجعل لكل طائفة من الجند شعارا يتداعون به ، ليصيروا به متميزين .

وتركوا وراءهم نماذج تحتذى فى فن القيادة ، وتجارب رائعـة فى ادارة البلاد وتدبير شئونها .

وتخرجت الفرقة الثانية من كبار القادة العرب فى عهد الدولة الأموية ، وضمت من الأسماء اللامعة : مسلم بن قتيبة الباهلى الذى فتح بلاد ما وراء النهر (نهر سيحون وجيحون) ونشر الدين الاسلامى فى تلك الأرجاء النائية ، ومحمد بن القاسم الثقفى الذى اشتهر بفتوحه الباهرة فى اقليم السند من بلاد الهند واعلاء كلمة الاسلام هناك ، ومسلمة بن عبد الملك الذى قاد الجيوش والأساطيل العربية فى حصار القسطنطينية عاصمة دولة الروم وأضعف قوتها وهد من كيانها وعدائها التقليدى للمسلمين ، ومن هؤلاء قادة الفتوح العربية فى شمال أفريقيا ، وهم عقبة بن نافع الفهرى ، وزهير ابن قيس البلوى ، وحسان بن النعمان ، الذين نقلوا راية الجهاد فى تلك الأرجاء الى موسى بن نصير ، وتركوا له تثبيت أقدام العروبة والاسلام هناك ، على هدى ما توافر له من مؤهلات انفرد بالحصول عليها بدرجة الامتياز من مدرسة القادة العظام .

وتعلم موسى بن نصير فى تلك المدرسة أن القيادة لم تعد وقفا ــ كما كانت قبل الاسلام ــ على شيوخ القبائل أو أسر معينة ، بل صارت مفتوحة أمام الجميع دون التقيد بالسن ، لكن بشرط توافر أمرين أساسيين ، أولهما اكتساب خصال الفروسية ، وثانيهما التحلى بصفات الزعامة . اما خصال الفروسية فلم تعد مجرد الخبرة بالكر والفر فى القتال ــ كما كان الحال فى العصر الجاهلى ــ ولكن غدت فنا عاليا حددت مدرسة القادة العظام قواعده ، وأحكمت مناهجه وأساليب العمل به . فأصبح على المرشح للمناصب القيادية الحصول على المؤهلات التالية ليشق طريقه الى المجد وخلود الذكر :

أولا : الخبرة التامة بمكايد الحروب ، اذ جرى العرف على أن

« الحرب خدعة » . فكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا غزا أخذ طريقا وهو يريد أخرى ، ويقول : ان الحرب خدعة . وحرص الرسول الكريم على أن يعهد بقيادة الجيش لمن تتوافر له تلك الخبرة ، فقد أثر عنه قوله عليه الصلاة والسلام : « انى لأؤمر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عينا وأبصر بالحرب » .

ودأب قادة القرن الأول الهجرى على السير وفق هذه القاعدة والحصول على أعلى درجة فى المؤهل المطلوب لها . فكان بعضهم يقف بين الجند قبل الهجوم ، فيحمد الله ويثنى عليه ، ثم يقول : انى أسير الغداة فى طريق كذا ، ويقصد بذلك تضليل جواسيس الأعداء ، فاذا أصبح سلك بالجند طريقا غير ما سماه ، ويروغ من الجواسيس كما يروغ الثعلب . وارتبط بهذه الخبرة وبمكايد الحروب ركوب الخيل والقدرة على استعمال آلات القتال المعروفة اذ ذاك ، وبخاصة اجادة القتال بالسيف والرمح والنشاب .

ثانيا : القدرة على اعداد الجند ، وذلك وفق التعليمات التالية :

(أ) التحقق من السلامة الجسمانية أو اللياقة البدنية ، واجادة استخدام الأسلحة المعروفة .

(ب) تفقد الجيش ومن فيه ، وابعاد من يبدو عليه الخوف والخذلان ، أو من يشك فى سلوكه أو الجهة التى ينتمى اليها .

(جـ) ألا يمالىء القائد شخصا ممن يعمل تحت امرته بسبب القرابة أو النسب الرفيع ، لأن ذلك يوقع الشقاق بين الجند ويفسد سيرهم للقتال .

(د) الرفق بالجند فى أثناء السير ، « فلا يجد السير فيهلك الضعيف ويستفرغ جلد القوى » .

(هـ) أن يجعل لكل طائفة من الجند شعارا يتداعون به ، ليصيروا به متميزين .

ثالثا : الحزم فى الضبط والربط ، وتنفيذ ذلك على النحو التالى :

(أ) تأمين الجيش من هجوم مفاجىء يقوم به العدو ، وذلك باتخاذ ما يلزم من الحراس ، وسد الثغرات والطرق التى يمكن أن يتسلل منها العدو .

(ب) اختيار ميدان القتال وتحديد الأرض التى تجرى عليها المعركة ، وذلك ليظل صاحب اليد العليا ، طليق الحركة .

(جـ) المحافظة على خطوط تموين الجيش ليضمن وصـــول المؤن والمدد كذلك ، بما يهيىء للجند الطمأنينة والراحة ، وتدبير السلاح والعتاد فى كل وقت من أوقات القتال .

(د) أن يقف على أخبار عدوه ، ويستطيع بذلك أن يأمن وقوع مكروه قد يصيب الجند .

(هـ) ترتيب الجيش ترتيبا يتفق مع الخطط الحربية ، ويدعم حلقة الاتصال بينه وبين الجند عن طريق مساعديه وحراسه .

(و) أن يعمل دائما على رفع الروح المعنوية بين الجند ، وان يظل أمامهم دائما مثلا أعلى يحتذى فى تلك السبيل .

(ز) المحافظة على حسن سلوك الجند ، وحثهم على العمل بما أوجب الله تعالى من حقوقه ، والتزام ما أمر به من حدوده ، وذلك وفق الحديث الشريف ، فقد روى عن الرســـول الكريم ، صلى الله عليه وسلم قوله : « انهوا جيوشكم عن الفساد ، فانه ما فسد جيش قط الا قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وانهوا جيوشكم عن الزنا فانه ما زنى جيش قط الا سلط الله عليهم الموتان (أى الموت الكثير الوقوع) ، وانهوا جيوشكم عن الغلول (الخيانة فى المغنم) فانه ما غل جيش قط الا قذف الله الرعب فى قلوبهم » .

رابعا : قوة الشكيمة عند القتال واتباع الأسلوب الكفيل بتحقيق

النصر ، كالأسلوب الذى اتخذه القادة العرب من سيرة الرسـول الكريم فى غزواته ، فهو مثل يحتذى عند قتال العدو ، ومن ذلك :

(أ) نصب المجانيق والعرادات (وهى المجانيق الصغيرة) لضرب العدو فى داخل حصونه .

(ب) قطع النخل والشجر اذا كان ذلك سبيلا لهدم مقاومة العدو . فقد قطع النبى صلى الله عليه وسلم كروم أهل الطائف ، فكان سببا فى اسلامهم ، وأمر فى حرب بنى النضير (اليهود) بقطع نوع من النخيل «يقال له الأصفر ، يرى نواه من وراء اللحاء ، وكانت النخلة منها أحب اليهم من الوصيف (أى العبد) » .

(جـ) يجوز للقائد أن يقطع الماء عن العدو ليحمله على الخضوع .

خامسا : تقوى الله ، فهى عماد جرأة الجنان والشجاعة . فقوة الايمان بالله والاعتقاد الراسخ بأن الموت بيده جعل قادة العـرب يندفعون فى حماسة نادرة للقتال ، واشتهروا بيمن الطالع ، وسارع الجند للسير وراءهم للقتال تملؤهم الثقة بالنصر .

وأكد الخلفاء بدورهم أهمية التمسك بخصال الفروسـية فى الوصايا التى ادلوا بها لأولئك القادة العظام الذين عرفهم القرن الأول الهجـرى ، وحفظوا بالتالى للفتوحات التى قاموا بها الطمأنينة والاستقرار . فجاء فى وصية الخليفة عمر بن الخطاب للقائد سعد ابن أبى وقاص نموذجا للقواعد التى تمسك بها القادة العرب طيلة القرن الأول الهجرى . ومن هذه الوصية قول الخليفة لقائده : « أما بعد فانى آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ..

وترفق بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ..

وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا .. واجعل أمر السرايا الى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخص بها أحدا بهوى ، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت من أهل خاصتك .. فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ، مالم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنيعه بك .. والله ولى أمرك وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان » .

وأوصى الخلفاء الأمويون قادتهم بمثل ما جاء به الخليفة عمر ابن الخطاب ، فقال الخليفة عبد الملك بن مروان لأحد قادته : « أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس الذى ان وجد ربحا تجر ، والا تحفظ براس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك » .

وجمع قادة العرب العظام فى القرن الأول الهجرى ، الى جانب خصال الفروسية السالفة الذكر صفات الزعامة الحقيقية . وتجلت تلك الصفات فى المقدرة الفائقة على الادارة والسياسة ، وتنظيم الشئون المدنية التى يتطلبها بناء الدولة العربية الاسلامية بعد استقرار الفتوح . فكان كل قائد يتحول بعد انتهاء العمليات الحربية الى رجل دولة ممتاز ، واسع الأفق ، خبير بشئون الأهالى ومطالبهم ، هذا الى تمتعه بقدر كبير من الدبلوماسية والمهارة فى تأليف القلوب وجمعها على كلمة العروبة والاسلام .

وأتاحت الأحداث لموسى بن نصير ان يقف عمليا على أهمية هذه الصفات حين صاحب عبد العزيز بن مروان الذى تولى حكم مصر سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م ، وصار من خلصائه المقربين اليه . فكان عبد العزيز بن مروان يسير فى ادارة شئون البلاد على هدى ما جاء

فى وصية والده له : « أى بنى ، انظر الى عمالك ، فان كان لهم عندك حق غـــدوة فلا تؤخره الى عشية ، وان كان لهم عشية فلا تؤخره الى غدوة ، واعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . واياك أن يظهر لرعيتك منك كذب فانهم ان ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق . واستشر جلساءك وأهل العلم .. وان كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند ثورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب .. ثم انظر الى أهل الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك . ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض » .

واطلع موسى بن نصير على هذا التراث الهائل وما ارتبط به من مؤهلات القيادة منذ شق طريقه الى الحياة ، وهيأت له المقادير الاسهام فى نشاط مدرسة القادة العظام فى القرن الأول الهجرى . وقد كشف موسى بن نصير نفسه عن ايمانه الراسخ بما درس ومارس من تجارب فى تلك المناقشة الطريفة التى دارت بينه وبين الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ، الذى أراد أن يعرف سبب تفوق هذا القائد فى ميدان الجهاد .

قال الخليفة لموسى : ما الذى كنت تفزع اليه فى مكان حربك من أمور عدوك ؟ .

قـــال موسى : التوكل والدعاء الى الله يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة لموسى : هل كنت تمتنع فى الحصـــون والخنادق ، أو كنت تخندق حولك ؟

قـــال موسى : كل هذا لم أفعله .

قال الخليفة لموسى : فما كنت تفعل ؟

قـــــال موسى : كنت أنزل السهل وأستشعر الخوف والصبر ، وأتحصن بالسيف ، وأستعين بالله ، وأرغب اليه في النصر .

قال الخليفة لموسى : أخبرني ، كيف كانت الحـــرب بينك وبين عدوك ، أكانت عقبـــا (أي يوم نصر ويوم هزيمة) ؟ .

قـــــال موسى : لا يا أمير المؤمنين ، ما هزمت راية لي قط ، ولا فض لي جمع ، ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين الى أن شـــارفت الثمانين .

الفصل الثانى

أيام الصّبا والشّباب

يعتبر الحديث الذى دار بين الخليفة سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصير مفتاح دراسة لحياة هذا القائد المظفر ، وما تم على يديه من جليل الأعمال . فقد نخر موسى امام الخليفة بأن النصر صار معقودا بلوائه منذ دخل سن الأربعين حتى شارف الثمانين من عمره المديد ، وهى مدة لم ينعم بها قائد من قبل ولا من بعد . ولم يكن فى هذا القول شىء من المبالغة لأن سنوات النصر الأربعين استندت الى سنوات مثلها من الدرس والتحصيل حافلة بالمشاهدات الفريدة والمواقف العصيبة والتجارب المستفيضة . ومن ثم انطبعت أيام صبا موسى بن نصير وشبابه بطابع الكفاح المتصل واتصفت بالنشاط والجد ، وهو أمر جعله من معدن فاق به سائر أقرانه ومعاصريه من حيث الشكيمة والصلابة ، وأبعدته عما يمكن أن تصاب به حياة الصبا والشباب عادة من دعة أو جدة .

نشأ موسى بن نصير فى أسرة عربية عريقة ، ارتبط تاريخها بامجاد الأمة العربية قبل الاسلام وبعده ، واستمد منها الكثير من مقومات الشخصية القوية والطموح العالى . فهو ينتسب الى قبيلة بكر بن وائل الربيعية التى انتشرت مضاربها فى أرض الحيرة غربى

نهر الفرات قبل ظهور الاسلام ، وشاركت قريناتها من القبـــائل العربية هناك فى الاغارة على بلاد فارس ، ومقاومة استبداد أكاسرتها ، وطغيانهم . فقادت تلك القبيلة لواء ثورة عرب العراق ضد الفرس وتصدت للقوات الفارسية فى وقعة ذى قار ، وأنزلت بها هزيمة فادحة . وروى أن انباء هذا النصر بلغت الرسول الكريم — وكان اذ ذاك بمكة قبل البعثة — وقال ما معناه : هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم .

وبظهور الاسلام وقيام الفتوح العربية على عهد الخليفة أبى بكر الصديق بدأت قبيلة بكر بن وائل تنضم الى هذه الحركة التحررية الكبرى ، وأخذت أحداثها تمهد لظهور أسرة موسى بن نصير على مسرح الجهاد العربى الاسلامى . ذلك أن الخليفة أبا بكر أرسل القائد خالد بن الوليد لفتح الحيرة والعراق ، وتحرير القبائل العربية هناك من طغيان الفرس . واستطاع هذا القائد المظفر أداء مهمته فى سرعة خاطفة ، وقضى على مقاومة الفـــرس وحلفائهم فى وقعة « عين التمر » ، وهى بلدة تقع على طرف الصحراء غربى نهر الفرات، وذلك سنة ١٢ هـ / ٦٣٢ م .

ولما اقتحم خالد حصن « عين التمر » وجد فى بيعة بها اربعين غلاما ، منهم : نصير والد موسى بن نصير ، وسيرين أبو محمد ابن سيرين ، وغيرهما ، فأخذوا جميعا أسرى . وأسلم نصير غداة الأسر ، ثم انتقل الى الحجاز التى كانت اذ ذاك قلب الدولة العربية الفتية . وهناك دخل نصير فى قبيلة لخم اليمنية ، وهى احـــدى القبائل الكبرى بالحجاز ، وتزوج منها امراة رزق منها ابنه موسى سنة ١٩ هـ / ٦٤٠ م فى خلافة ثانى الخلفاء الراشدين ، وهو عمر ابن الخطاب .

وارتبطت نشأة موسى بن نصير بذلك بأهم فترة فى تاريخ الأمة العربية ، وهى انطلاق موجة الفتوح العربية من قاعدتها الأولى بالحجاز ، ومتابعة التطور السياسى والحضارى الذى صاحب تلك

الفتوح الباهرة متابعة دقيقة مستفيضة . فسمع موسى وهو فى صباه سيرة خالد بن الوليد ، وما قام به من انتصـــارات باهرة ، واستمع فى شوق الى والده وهو يروى جهاد هذا البطل منذ شاهده فى عين التمـــر بالعراق حتى أتم فتح الشام . وقد توفى خالد ابن الوليد ســـنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م بعد عامين من ميلاد موسى ابن نصير ، وصار والد موسى هو مصدر معلوماته الشائقة فيما بعد عن هذا الفاتح العظيم الذى شاءت الأقدار أن تربط اسمه باسم والده نصير ، وأن يجد فى خالد بن الوليد أول أستاذ يستفيد منه ومن تراثه الذى خلفه لمدرسة القادة العظام فى القرن الأول الهجرى .

ولما شب موسى بن نصير عن الطوق وجد فى المدينة المنورة ، عاصمة الدولة العربية على عهد الخلفاء الراشدين دراسات علمية قيمة ، كان لها أكبر الأثر فى ثقافته وتربيته . اذ حفلت المدينـــة بعدد كبير من العلماء الذين كرسوا حياتهم لدراسة علوم الدين الاسلامى ، من تفسير للقرآن الكريم ، وجمع للأحاديث النبـــوية الشريفة . وأتاحت هذه الحركة لموسى بن نصير أن يقف على كثير من سيرة الرسول الكريم ، وبخاصة ما أثر عن نشاطه وخططه الحربية فى المغازى التى قام بها فى سبيل نشر الدعوة الاسلامية . ذلك أن العلماء فى المدينة حين جمعوا أحاديث الرسول الكريم ودونوها أفردوا أبوابا منها للمغازى ، وذكروا فيها كل شاردة وواردة أثرت عن النبى ، حتى صارت أعماله نماذج تحتذى أمام أجيال المسلمين .

وساعد على دعم الدراسات الدينية فى المدينة المنورة أن الذين تصدوا لها فى أول الأمر كانوا من الصحابة ، الذين التقوا بالرسول الكريم ، ونعموا بصحبته . ثم ان أولئك الصحابة دأبوا على رواية أحاديث الرسول الكريم ، وكانوا حريصين كل الحرص على سلامتها وابعاد الزيف عنها . وعن هؤلاء الصحابة ظهرت طبقة التابعين ، أى الذين لم يشاهدوا الرسول الكريم ، ولكن قاموا بالنقل عن

الصحابة لكل ما وعته ذاكرتهم من سيرة النبى . وسلك موسى ابن نصير فى تربيته الدينية مسلك التابعين ، فقد جهد فى الاشتغال بجمع الحديث من كبار الصحابة الذين كانوا اذ ذاك على قيد الحياة.

واشتهر موسى بن نصير بأنه روى الحديث عن تميم الدارى ، وهو صحابى أسلم سنة ٩ هـ ، واشتهر بكثرة التعبد والتهجد ، وملازمته للرسول الكريم فى حياته . وبلغ موسى بن نصير درجة عالية فى العلم والرواية لأحاديث الرسول الكريم حتى صار مصدرا ينقل عنه نفر من التابعين تلك الأحاديث . واشهر من روى عن موسى ابن نصير تابعى اسمه يزيد بن مسروق اليحصبى . وخلد موسى ابن نصير بذلك اسمه فى حلقات الاسناد الخاصة برواية الحديث ، والاسهام فى دعم وتنمية الدراسات الدينية فى صدر الاسلام .

وكانت هذه التربية الدينية التى تلقاها موسى بن نصير منذ نعومة أظفاره سببا فى أن يشب ويكبر على حب التقوى والورع ومخافة الله ، والفزع اليه فى كل ما يواجهه من عظائم الأمور . وظلت هذه الخصال الدينية تلازم موسى بن نصير طيلة حياته ولم يتخل عنها يوما من الأيام ، واستطاع بفضلها أن يكسب احترام معاصريه ، وكذلك كل من عمل معه فى شتى الأرجاء التى جاب آفاقها . وقد سجلت احدى الروايات هذه الصفات الحميدة التى تحلى بها موسى ابن نصير ، فى هذه العبارة الموجزة البليغة : قال بعض العلماء : « ان موسى بن نصير كان عاقلا شجاعا كريما تقيا الى الله تعالى » . وبعبارة أخرى اكتسب موسى بن نصير احدى المؤهلات المطاوبة للوصول الى مركز القيادة ، وهى التقوى ومخافة الله ، ونال درجة عالية فيها .

وارتبط بهذه الحياة الدينية ، شغف موسى بالثقافة العربية والعمل على الاستزادة منها ، ومن ينابيعها الدافقة بالحجاز ، وبخاصة فى أيامه الأولى بتلك الجهات . فكان الحجاز يعتبر فى هذه السنوات المبكرة من القرن الأول الهجرى مركزا هاما للثقافة

العربية ، يلجأ اليه الراغبون من شتى الجهات التى فتحت اذ ذاك للوقوف على جوهر اللغة العربية وآدابها ، وخاصة من منابعها الأصلية فى البادية . فكان النطق السليم والقول الحكيم وارتجال الشعر من الملكات التى فطر عليها العربى ، وغدت أجيال التابعين تحرص على الالتقاء بهؤلاء العرب والاختلاط بهم للوقوف على أسرار اللغة العربية وجمالها .

وشب موسى بن نصير فى هذا الوسط العربى الخالص ، وبدأت تنمو فيه ملكات العربى الأصيل من حيث حلاوة اللسان والقدرة على البيان . ولم تفارقه هذه الملكات فى يوم من الأيام ، وانما زادتها الأحداث والملابسات قوة وروعة . وشهدت له بذلك النماذج التى حفظتها المراجع عن مناقشاته فى مجالس الخلفاء ، ومراسلاته لأقرانه ومعاصريه من كبار رجال الدولة ، وخطبه التى ألقاها فى جنوده وهم على أهبة القتال . وكانت مجالس الخلفاء الأمويين خاصة تحفل بالكثير من المناقشات السياسية والأدبية والمناظرات والمفاخرات ، وحاول كل من اشترك فيها أن يظهر أقصى ما لديه من علم ومواهب وفن وخبرة كذلك .

واسهم موسى بن نصير فى تلك الندوات المتعددة ، وكان له قصب السبق فى المناقشات التى اشترك فيها . فذكرت احدى الروايات حادثة تشهد لموسى بن نصير بالبلاغة فى تلك المناقشات قائلة : ان منازعة جرت بين موسى بن نصير وبين عبد الله بن يزيد الأنصارى ، وهو من التابعين ، فى حضرة عبد الملك بن مروان ، واضطر موسى فى هذه المناسبة أن يقول شعرا يفتخر فيه بمقدرته على الجدل والحديث والقدرة على منازلة منازعيه دون أن يسأم أو ينساله الضجر ، ودون أن ترهبه كثرة الحاضرين ، فقال :

جاريت غير سئوم فى مطاولة
لو نازع الحفل لم ينزع الى حصر

وأكدت اكثر الروايات التاريخية التى تناولت سيرة موسى

ابن نصـــــير علو كعبه فى ميدان الثقافة العربية والالمام بفنونها . فأشارت احدى تلك الروايات الى « أن موسى كان عربيا فصيحا » ، على حين وصفت رواية أخرى مكانته بين كبار الأدباء والشعراء فى تلك العبارة الرصينة الوافية : أما معارف موسى بن نصير الأدبية « فقد جاءت عنه بلاغة فى النظم والنثر تدخله مع نزارتها (أى قلتها) فى أصحاب درر الكلام » .

واذا كان موسى بن نصير قد استمد مقومات دراساته الدينية والأدبية من أرض الحجاز فانه مدين بتربيته السياسية والعسكرية الى بلاد الشام . اذ أصبحت دمشق منذ خلافة عثمان بن عفان قاعدة نشاط البيت الأموى الطامح الى السلطان ، ومركزا يجتذب اليه كل العناصر الصالحة لتأييده وخدمة أهدافه ، اذ اعتبر الأمويون وصول عثمان بن عفان الى الخلافة كسبا لهم ، وسبيلا أوصل السلطان اليهم باعتباره ينتمى الى أمية الجد الأكبر لهم . وكان معاوية بن أبى سفيان ، وهو والى الشام اذ ذاك ، يعمل طيلة خلافة عثمان بن عفان على الاحتفاظ بسلطان الحكم فى بيت بنى أمية ، ويستنفد فى سبيل ذلك كل ما أوتى من دهاء وسياسة .

وأجاد معاوية انتقـــــاء الرجال وتأليف قلوب من يرى فيهم الصلاحية للاعتماد عليهم ، وكذلك التفانى فى تنفيذ مآربه . واجتذب معاوية اليه نصير والد موسى بن نصير ، وعهد اليه برئاسة حرسه ، وهو منصب لا يتولاه الا كل من نال الثقة الكاملة ، واصبح أهـــــلا للتمتع بمركز الصدارة وسط رجال الحكم . وأتيح لموسى بالتالى أن ينتقل الى بيت معاوية بن أبى سفيان وأن يتدرب هناك فى اكبر وأعظم مدرسة للسياسة شهدتها الدولة العربية الاسلامية فى صدر حياتها .

وأول درس تلقاه موسى بن نصير فى هذه المدرسة الجديدة هو موقف معاوية بن أبى سفيان من الفتنة التى اطاحت بالخليفة عثمان ابن عفان ، وما تلاها من صراع بين على ومعاوية . اذ كان والد موسى ،

بحكم منصبه رئيسا لحرس معاوية بن أبى سفيان ، على صلة بتلك الأحداث ، ومضطر لمراقبة تطوراتها عن كثب . وكان موسى نفسه قد اقترب اذ ذاك من سن العشرين من عمره ، وصار ناضجا وعلى وعى كامل لمتابعة المناورات السياسية والحربية التى قام بها معاوية ابن أبى سفيان للانفراد بالسلطان . ومن الخطوات الهامة التى اتخذها معاوية اذ ذاك هو تجميع أكبر قدر من الرجال لمحاربة على ابن أبى طالب ، الذى كان قد زحف على الشـــام ، والتقى بجند معاوية عند صفين ، الى الجنوب من الرقة ، على الضفة الغربيـــة لنهر الفرات .

وشاهد موسى بن نصير فى هذه المرحلة الحرجة فى حياة معاوية ابن أبى سفيان درسا فى حرية الرأى والشجاعة فى القول من والده . ذلك أن معاوية بذل كل ما فى اســـــتطاعته لتعبئة قواته ، وطلب المساعدة من جميع رجاله على اختلاف مراتبهم . وكان والد موسى ابن نصير لا يرى الرأى فى محاربة على بن أبى طالب ، وهو موقف جرىء جدا فى هذه الأيام الحاسمة فى تاريخ البيت الأموى . ولذا عندما طلب منه معاوية الخروج معه لحرب على بن أبى طالب رفض ، على الرغم مما يفرضه عليه منصبه من تبعات والتزامات .

وجرى بين معاوية ووالد موسى بن نصير هذه المناقشة التى صارت درسا قيما للابن لم ينسه أبدا ، وغدا ما حفظه منه عنوانا على ما تحلى به دائما وطيلة حياته من حب للشـــجاعة فى القول ، والحرية فى ابداء الرأى عن عقيدة وايمان . اذ قال معاوية لوالد موسى بن نصير : ما يمنعك من الخروج معى للقتال ، ولى عندك يد لم تكافئنى عليها ولم تجزنى بها ؟ .

فأجاب والد موسى : لم يمكننى أن أشكر نعمتك بكفرى بمن هو أولى منك بشكرى .

فسأل معاوية والد موسى مرة أخرى : ومن هو ؟ .

فقال والد موسى لمعاوية : هو الله عز وجل .

ولم يستطع معاوية بن أبى سفيان أمام هذه الاجابة الجريئة البليغة فى معناها وفى أدائها أيضا الا أن يطرق برأسه هنيهة يفكر فيها وفيما احتوته من معان سامية وشجاعة نادرة . ثم رفع رأسه وهو يقول : استغفر الله ، استغفر الله ، وترك والد موسى بن نصير فى منصبه ، احتراما لرأيه ، واعترافا منه بأن ثقة البيت الأموى فى هـذا الرجل وايمانه بولائه فوق الشبهات ، وفوق الجدل أو الامتحانات .

وظلت مكانة والد موسى بن نصير عالية لدى معاوية بن أبى سفيان، الذى رأى فى صراحة هذا الرجل ما يجعله يعتز به ويعمل على الاحتفاظ به فى خدمة دولته . اذ سرعان ما تمخض النزاع بين معاوية بن أبى سفيان وعلى بن أبى طالب عن قيام البيت الأموى وتولية معاوية خليفة على الدولة العربية الاسلامية سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م . ورأى الخليفة الجديد أنه بحاجة أكثر من قبل الى أبناء الرجال الذين يعملون معه ، ودعم ملكه الذى آل اليه .

ووجد موسى بن نصير فى العهد الجديد آفاقا واسعة للعمل والتدرب فى ميدان الجهاد أكمل به ما سبق أن درسه فى حلبة السياسة ودروبها . وأفسح معاوية بن أبى سفيان للشاب موسى ابن نصير السبيل للاشتراك فى تنفيذ سياسته الحربية الجديدة الخاصة ببناء بحرية عربية تعمل على حماية شواطىء دولته المطلة على البحر المتوسط من خطر الأعداء . وكان معاوية بن أبى سفيان قد استهل سياسته الجديدة منذ تعين واليا على بلاد الشام . فقد استرعى نظره قرب جزيرة قبرص من ولايته ، وتيقنه ان الروم (البيزنطيين) وهم أعداء الاسلام اذ ذاك حرصوا على اتخاذ تلك الجزيرة قاعدة للاغارة على الشام ، وتهديد أمن الأهالى بها . وقاد معاوية بن أبى سفيان ، وهو وال على الشام ، حملتين على جزيرة قبرص ، واتفق مع اهلها على ان يقفوا على الحياد فى الحرب بين المسلمين والروم ، ولا يطلعوا الروم على خطط المسلمين أو يقدموا لهم أية مساعدة من شأنها الاضرار بالمسلمين .

وكان موسى بن نصير قد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، يوم خرج معاوية بحملته البحرية الثانية على جزيرة قبرص (٣٣ هـ / ٦٥٤ م) ، وشاهد عن كثب ، وهو فى كنف والده بالشام استعدادات معاوية البحرية ، ووقف على أهمية هذه السياسة الجديدة التى تبناها هذا الوالى النشيط . وكان من حسن حظ موسى بن نصير أن يتابع بنفسه وهو بالشام تطور السياسة البحرية للعرب ، وأن يشترك بنفسه ، فى خلافة معاوية ، فى تنفيذ أهدافها وتحقيق مآربها . ذلك أن الروم استهدفوا باغاراتهم البحرية على سواحل الشام ومصر أيضا طرد المسلمين منها ، اعتمادا الى افتقار الجيوش العربية الى الخبرة بحرب البحار فى مطلع فتوحهم فى مصر والشام ، والى عدم وجود أساطيل للعرب تصد تلك الاغارات .

ولذا جاءت سياسة معاوية بن أبى سفيان البحرية وانطلاقها منذ ولايته للشام عنصرا هاما فى تأمين ودعم الشواطىء الشامية المصريه ، وصد العدوان المتكرر من جانب أساطيل الروم . وشاهد موسى بن نصير تلك الجهود الجبارة ، ثم خروج السفن العربية بقيادة معاوية لمنع الروم من الاستيلاء على جزيرة قبرص ، وجعلها قاعدة تهدد الفتوح العربية وشاءت الأحداث أن تضيف الى مشاهدات موسى فى تلك السياسة الجديدة درسا رائعا قبيل نشوب الصراع بين على ومعاوية . ذلك أن أساطيل العرب الجديدة خرجت من الشام ومصر سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م ، وأحرزت نصرا باهرا على أسطول الروم فى وقعة « ذات الصوارى » المشهورة ، وهيأت للعرب الانتقال من دور الدفاع البحرى الى مرحلة الهجوم والتوسع فى البحر المتوسط وتقليم أظافر أساطيل الروم .

وشارك موسى بن نصير فى نشاط هذه المرحلة الهامة من عصر انطلاق البحرية العربية ، وغدا أحد أمراء البحار الذين أسهموا فى الهجوم على قواعد الروم فى شرق البحر المتوسط . وكان معاوية ابن أبى سفيان لا ينتدب لهذه الحملات البحرية الا المقربين للبيت

الأموى ، والمشهود لهم أيضا بالجرأة وحب المغامرة . فالمعروف أن قتال البحر يختلف عن قتال البر ، ويتطلب فى أمير البحر أو قائد الحملة جنانا ثابتا ويقظة تامة وقدرة عالية على التصرف أمام المواقف المفاجئة التى تثيرها عواصف البحر وأنواؤه . ولذا كانت تولية معاوية بن أبى سفيان موسى بن نصير « غزو البحر » دلالة على ثقة البيت الأموى فى هذا القائد الشاب ، ورغبة السلطات الأموية فى الافادة من مواهبه للدفاع عن أرض الدولة الفتية فى شرق البحر المتوسط .

وكان ميدان النشاط البحرى الذى صال فيه موسى بن نصير وجال هو جزيرة قبرص وما جاورها من الجزر التى هددت دائما أمن الشام وسلامته . ذلك أن الروم دأبوا بعد وقعة ذات الصوارى على القيام بحملات سريعة من تلك الجزر والاحتماء بها بعد انتهاء مهمتها . وكان معاوية قد ترك حامية فى جزيرة قبرص لتراقب نشاط الروم ، ولتحول دون ضغط الأساطيل التابعة للأعداء من انزال الأذى بالأهالى . وتطلب هذا الأمر تكرار نشاط الأساطيل العربية حول جزيرة قبرص والعمل على تقوية خطوط الدفاع فيها . واضطلع موسى بن نصير بهذه المهمة ، فبنى حصونا بتلك الجزيرة لصد هجمات الروم البحرية . واستطاع بعد ذلك القيام بغزو عدد من الجزر القريبة من قبرص ، وأثبت جدارة فائقة فى تنفيذ السياسة البحرية العربية وهى فى أيامها الأولى .

واستفاد موسى بن نصير فائدة كبيرة من هذا النشاط البحرى الذى اشترك فيه ، وخرج بدروس كان لها أكبر الأثر فى حياته فيما بعد عندما أتاحت له الظروف الانتقال الى الميدان الافريقى . اذ عرف من جهاده فى شرق البحر المتوسط أساليب الروم ، ووقف على خططهم فى الاعتماد على السفن الحربية لعرقلة نشاط المسلمين ، واتخاذهم للجزر القريبة من الشواطىء الاسلامية قواعد لشن الاغارات المفاجئة . واستحق موسى بن نصير بفضل ما توافر له

من خبرات بحرية فى هذا الميدان أن ينال الأمجاد الرائعة حين رشحته الأحداث فيما بعد للجهاد فى شمال افريقيا ، وطرد الروم من تلك البقاع الهامة من غرب البحر المتوسط .

وبانتهاء خلافة معاوية بن أبى سفيان بدأ موسى بن نصير يدخل معركة السياسة مرة أخرى . ذلك أن خلافة يزيد بن معاوية اتسمت بالمنازعين له على العرش ، من أمثال الحسين بن على بن أبى طالب ، ثم عبد الله بن الزبير ، الذى اتخذ من الحجاز مقرا لدعوته ومركزا لمناهضة سلطان البيت الأموى . ولم يستطع الجيش الذى بعث به يزيد بن معاوية الى الحجاز القضاء على ابن الزبير بسبب وفاة الخليفة (٦٤ هـ / ٦٨٤ م) ، واضطرار الجند الى العودة الى الشام .

وانغمس موسى بن نصير فى المشاكل السياسية الكبرى التى أعقبت وفاة يزيد بن معاوية وخالف فى ذلك موقف والده الذى سبق أن شاهده أيام الخلاف بين على ومعاوية . فبينما آثر والد موسى بن نصير عدم الدخول فى ميدان الصراع ، عمد موسى الى ترك سياسة الحياد والاشتراك فى الصراع الذى نشب بين الطامعين فى الخلافة بعد وفاة يزيد بن معاوية . ولكن باستقرار الأمر لمروان ابن الحكم سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م ، ، وتوليه عرش الخلافة ، عاد موسى ابن نصير الى خدمة البيت الأموى ، وبدأ يستعيد نشاطه فى تثبيت أركان الدولة الفتية . وكان عبد العزيز بن مروان ، الابن الأكبر للخليفة مروان ، هو صاحب الفضل فى احتضان موسى بن نصير ، وضمه الى الفرع المروانى ، الذى آلت اليه مقاليد الأمور فى دمشق . اذ آمن عبد العزيز بن مروان بمواهب موسى بن نصير ايمانا راسخا ، وهيأ له كل الفرص لوضع هذه الخدمات فى سبيل اعلاء كلمة الاسلام والعـــروبة .

واعتز موسى بن نصير بهذه العلاقة التى قامت بينـــه وبين عبد العزيز بن مروان ، ووجه كل مواهبه ليكون عند حسن ظن هذا السليل الأموى الكبير . وعندما ولى عبد العزيز بن مروان

شئون مصر ، اصطحب معه موسى بن نصير ، الذى تولى مركز المستشار الأول لوالى مصر ، فى هذه المرحلة الهامة من اعادة دعم سلطان البيت الأموى ، وأن يسهم مع واليها فى ادارة شئون مصر .

واستعانت الخلافة أيضا بموسى بن نصير لاقرار الأوضاع فى العراق . اذ بعث الخليفة فى دمشق — وكان اذ ذاك عبد الملك ابن مروان — الى أخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر أن يبعث موسى بن نصير الى العراق ليكون وزيرا لأخيهم بشر بن مروان الذى صار واليا على البصرة . وجاء فى خطاب الخليفة الى عبد العزيز ابن مروان ما يلى : « انى قـــد وليت أخاك بشرا على البصرة ، فاشخص معه موسى بن نصير وزيرا ومشيرا ، .. وأعلمه بأنه المأخوذ بكل خلل وتقصير » .

وظل موسى بن نصير يؤدى واجبه كاملا بالعراق حتى توفى بشر بن مروان ورأى موسى أن الأحداث بالعـــراق لا تهيىء له الاستقرار ، ولذا عاد الى دمشق ، ليقدم للخلافة تقريرا عن المدة التى قضاها بالبصرة . وكان الخليفة قد اتهم موسى بالتقصير فى جمع الخراج ، وفرض عليه غرامة فادحة .

وشاءت الأقدار أن تبعث الى دمشق فى تلك الأثناء بوالى مصر ، عبد العزيز بن مروان . فدافع عن موسى بن نصير دفاعا مجيدا ، وتحمل عنه شطرا من الغرامة المفروضة عليه ، ثم اصطحبه فى عودته الى مصر ، وأطلق يده مرة اخرى فى معاونته فى ادارة ولايته . وبعودة موسى بن نصير الى مصر انتهت أيام الصبا والشباب ، وما امتلأت به من الأحداث الجسام ، والتجارب العظام ، وبدأ يطل من مصر على « الميدان الافريقى » ، الذى سجل فيه سيرة جهاده بمداد من الفخر والجلال .

الفصل الثالث

التأهيل للميدان الافريقي

جاءت عودة موسى بن نصير سنة ٧٥ هـ / ٦٩٥ م الى مصر فى صحبة واليها عبد العزيز بن مروان نقطة تحول هامة فى حياته وحياة العروبة والاســـلام كذلك . اذ ترك العمل فى ميدان المشرق بتياراته الصـــاخبة العنيفة ، وولى وجهه شطر المغرب الحافل بأعمال المجد والبطولات . وقضى موسى بن نصير — قبل أن ينتقل الى شمال أفريقيـــا — عشر سنوات بمصر ، كانت من أهم السنوات التى بنى عليها مجده الحربى والادارى ، ليس فى تلك الجهات الجديدة فحسب ، بل فيها وفى غرب أوربا أيضا .

وكانت الجهات المسئولة والدوائر الرسمية فى مصر تتحدث فى الوقت الذى عاد فيه موسى بن نصير الى تلك البلاد عن أحـــوال الفتوح العربية فى شمال أفريقيا ، وتحاول أن تقف على أســـباب العثرات التى منيت بها الفتوح فى تلك الجهات . فشاهدت الديار المصرية اذ ذاك استعدادات حربية واسعة النطاق لارسال حملة كبيرة بقيادة حسان بن النعمان من أجل استرداد المواقع التى ضـــاعت بسبب استشهاد سلفه القائد زهير بن قيس البلوى سنة ٧٠ هـ / ٦٩٠ م على ارض برقة . اذ أطاحت كارثة هذا القائد بكل الجهود

الحربية فى شمال أفريقيا ، وبدا الموقف يتطلب عملا متصلا من جديد مرة أخرى .

ولم تستطع حملة حسان بن النعمان التى خرجت من مصر فعلا سنة ٧٦ هـ / ٦٩٦ م أن تخلق الاستقرار المنشود فى الميدان الافريقى ، وظلت الأوضاع هناك فى حاجة الى المزيد من البحث والاستقصاء . وتولى عبد العزيز بن مروان والى مصر دراسة هذا الموقف الافريقى بنفسه ، وجهد فى وضع طاقاته للبحث عن قيادات جديدة تستطيع اتمام الرسالة التى بدأها نفر من خيرة قادة العرب فى شمال افريقيا ، دون أن يحالفهم الحظ فى تحقيق النصر الكامل . ووقع نظر عبد العزيز بن مروان على صفيه ومحل ثقته المطلقة ، موسى بن نصير ، الذى عاد معه من الشام ، وأخذ يؤهله لتولى القيادة العامة فى هذا الميدان الافريقى .

وكان موسى بن نصير فعلا هو رجل الساعة ، والجدير بالترشيح لهذا الدور الجليل الذى ادخرته له المقادير . اذ أتاح له عبد العزيز ابن مروان كل أسباب القوة والنفوذ ، وأشركه معه فى الدراسات الخاصة بالميدان الافريقى ، ووضع تحت تصرفه كل ما فى مصر ودواوينها من معلومات عن هذه الجبهة . وعقد عبد العزيز بن مروان على موسى بن نصير الآمال الكبار فى استقرار الأوضاع فى شمال إفريقيا . وأثبت موسى بن نصير أنه أهل لهذه الثقة المطلقة عن جدارة واستحقاق ، اذ أقبل طوال بقائه فى مصر على دراسة الميدان الافريقى ، وخرج من دراساته بنتائج باهرة ، كفلت له قصب السبق فى هذا الميدان ، ونجح فى اتمام الرسالة التى سبق أن بدأها العرب هناك .

واشتملت دراسة موسى بن نصير فى السنوات العشر التى قضاها بمصر ، وهى سنوات التأهيل للميدان الافريقى ، على ثلاثة موضوعات

هامة ، صارت كل منها حلقة رئيسية فى سلسلة الخبرات الحربية والسياسية التى أتاحت له النصر الحاسم السريع فى هذا الميدان ، وتلك هى :

أولا ــ دور مصر فى حركة الفتوح العربية فى شمال افريقيا .

ثانيا ــ التاريخ الحربى لحملات القادة العرب الذين سبقوه فى الميدان الافريقى .

ثالثا ــ متابعاته الشخصية لحملة حسان بن النعمان التى شاهد بنفسه خروجها من مصر ، وعاصر أحداثها ، والتى تولى بعدها مباشرة القيادة فى الميدان الافريقى .

وتمثل هذه الموضوعات الثلاثة العمود الفقرى لجميع الخطط التى وضعها موسى بن نصير للعمل فى شمال افريقيا .

خرج موسى بن نصير من الدرس الأول بفهم سليم للطريق الذى يجب أن يسير فيه الجهاد فى بلاد المغرب . فعرف أن الجهود العربية يجب أن تتجه اولا وأخيرا نحو الروم الرابضين فى شمال افريقيا وقواعدها ، لأنهم هم الذين وقفوا بالمرصاد للحيلولة دون انتشار العروبة والاسلام هناك ، كما سبق أن وقفوا فى عناد وصلف من قبل أمام الفتوح العربية فى الشام ومصر . وجــاء ايمان موسى ابن نصير بهذه العقيدة ثمرة الخبرة التى تركها عمرو بن العاص ، الوالى العربى الأول لمصر ، لأجيال القادة العرب من بعده فى تلك الجهات . اذ ادرك عمرو بن العاص ، بعد أن أتم فتح مصر ، أن ذنب أفعى الروم (البيزنطيين) ما زال قائما ، وأنه لابد من القضاء عليه لاستقرار الفتوح العربية فى مصر . فقد شاهد بنفسه شــدة مقاومة الروم فى مصر للزحف الاسلامى بفضل الامدادات التى جاءتهم من قواعدهم فى شمال افريقيا ، وبخاصة من برقة .

وارسل عمرو بن العاص عدة حملات استطلاعية للكشف عن قواعد الروم في شمال افريقيا ، وتأكد له خطورة هذا العدو الرابض في تلك الجهات . وتابع خليفته في مصر ، وهو الوالي عبـــد الله ابن ابي سرح سياسة الكشف عن قواعد الروم ، وقاد بنفسه حملة سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م توغل بها في قلب افريقية (تونس) واضطر أخيرا الى العودة الى مصر بسبب نشوب الفتنة التي ادت الى مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وما تلاها من صراع بين علي ومعاوية حول الخلافة . وباستقرار الأمر لمعاوية تابع ولاة الدولة الأموية في مصر سياسة مراقبة الروم في شمال افريقيا ، وارسال الحملات من أجل طردهم من هناك ، وتحرير أهالي تلك البلاد من سطوتهم وبطشهم .

وصارت أمام موسى بن نصير سياسة واضحة المعالم عن خبرة ولاة مصر بشئون شمال افريقيا منذ ولاية عمرو بن العاص حتى ولاية عبد العزيز بن مروان ، صديقه وحاميه . فقد كرس أولئك الولاة خلفا عن سلف شطرا كبيرا من دخل البلاد لتزويد الجيوش المتجهة منها الى شمال افريقيا بكل ما تحتاج اليه من عدة وعتاد ، فضلا عن امداد قادة تلك الجيوش بالخبرات والمعلومات الحربية الهامة . وصارت مصر هي القاعدة التي تحمي الجيوش العربية اذا حل بها مكروه ، والحصن الذي يحفظ لها قوتها ، ويجدد في جنودها وقادتها حب الجهاد والنضال . وغدا من الضروري على كل متجه الى الميدان الافريقي أن يقضي بعض الوقت في مصر ليتزود من ينابيعها المادية والعلمية ، ويستفيد مما بها من خبرات تساعده على حرب الروم أعداء العرب والاسلام في شمال افريقيا .

وازدادت خبرة موسى بن نصير بدور مصر في حركة الفتـــوح العربيةفيشمال افريقيا عن طريق التقائه أيضا بنفر كثير من رجالات مصر ممن سبق أن اشتركوا في الحملات الحربية في الميدان الافريقي أو أسهموا في تدبير شئونها . وكانت مصر تزخر في تلك الأيام التي

عاش فيها موسى بن نصير قبل خروجه الى شمال افريقيا بعدد كبير من المقاتلين العرب ، سواء كانوا ممن خاضوا بأنفسهم غمار الحروب فى الميدان الافريقى ، أو كانوا من أبناء الذين استشهدوا على أرض هذا الميدان ، وحفظوا عن آبائهم نماذج رائعة عن البطولة والشجاعة فى سبيل الجهاد من أجل العروبة والاسلام .

وصارت هذه الطبقة من أهل الخبرة بشئون شمال افريقيا المصدر الذى رجع اليه موسى بن نصـــير للبحث عن سبب تعثر الحملات الحربية فى شمال افريقيا ، والاستماع الى ما لدى رجالها من وجهات نظر متباينة ، تساعد دراستها على تبين معالم الطريق القويم . وانتقل موسى بن نصير بذلك انتقالا طبيعيا ومنطقيا الى دراسة التاريخ الحربى للحملات العربية التى خرجت الى شـــمال افريقيا ، وانعام النظر فى خطط قادتها ، والجهد فى الكشف عن طبيعة العقبات التى واجهتها . واذا كان هذا القائد الموهوب قد عرف من الدرس الأول أن الروم هم مصدر الخطر على الفتوح العربية فانه كشف عن طريق دراسته لتاريخ الحملات العربية خطط هذا العدو لحرمان القادة العرب من ثمار جهادهم وكفاحهم فى الميدان الافريقى .

ووجد موسى بن نصير أمامه سياستين تتصارعان فى شـــمال افريقيا ، لكل منها أهدافها الكبرى ، ووسائلها المتعددة لتحقيق تلك الأهداف . فالسياسة الأولى حمل لواءها العرب ، واستهدفت تحرير شمال افريقيا من ربقة الروم واخراجها من الظلمات الى النور ، والسياسة الثانية حمل لواءها الروم الذين استماتوا فى الاحتفاظ بسلطانهم على شمال افريقيا ، والعمل بشتى السبل على ابعاد أهلها عن تيار العروبة والاسلام .

وعرف موسى بن نصير أن عقبة بن نافع الفهرى هو واضع الحجر الأساسى للسياسة الاسلامية فى شمال افريقيا ، بما اتسمت

به من أهداف جليلة . فكان عقبة من أصحاب الخبرة الواســـعة بشئون شمال افريقيا ، عن طريق الدراسة الميدانية ، اذ تولى قيادة الحملات الاستطلاعية التى بعث بها عمرو بن العاص لكشف قواعد الروم فى برقة ، ثم أقام فى تلك الجهات مدة من الزمن جعلته يدرك أن فتح العرب للمغرب لن يتم الا اذا أنشأ المسلمون لهم مدينة فى « افريقية » ، وهى جمهورية تونس الحالية . ونفذ عقبة هذه الأمنية سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م حين خرج بحملته الأولى على شمال افريقيا ، وأسس مدينة القيروان .

ولكن الروم وقفوا لمجهودات العـــرب بالمرصاد ، وتمكنوا من الاطاحة بانتصارات عقبة حين خرج فى حملته الثانية على شمال افريقيا سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م ، اذ أعدوا له كمينا عند بلدة تهودة ، واستشهد فى المعركة التى دارت رحاها هناك . ولم يستطع خليفة عقبة فى الميدان وهو زهير بن قيس البلوى ، أن يتجنب نفس المصير الذى ألم بسلفه . ذلك أن الروم أعدوا له كمينا آخر عند برقة ، واستشهد زهير ، نتيجة غدر الروم ، وخياناتهم المتكررة .

وكانت أصداء هذه الكارثة التى حلت بزهير هى التى ملأت ديار مصر ، فى الوقت الذى عاد فيه موسى بن نصير من العراق ، بعد مقابلته الخليفة فى دمشق ، مع والى مصر عبد العزيز بن مروان . وشاهد موسى أيضا فى تلك الأثناء الاستعدادات الحربية التى خرج على رأسها حسان بن النعمان ، وهو القائد الذى سيخلفه موسى مباشرة فى الميدان الافريقى .

وتمثل حملة حسان بن النعمان الموضوع الثالث فى التأهيل الذى حصل عليه موسى فى سبيل الجهاد فى شمال افريقيا . اذ تابع أخبار هذه الحملة منذ خرجت من مصر سنة ٧٦ هـ / ٦٩٦ م وعرف كيف أن الفشل أصابها بسبب تشتيت حسان لجهوده بين الروم

وغيرهم ،واضطراره للانسـحاب الى برقة . ولم يستطع حسـان استئناف الحرب الا بعد أن جاءته الامدادات من مصر مرة أخرى ، وتمكن بفضلها من الانتصار على الروم .

وكان عبد العزيز بن مروان ، والى مصر ، قد شعر أن الموقف فى الميدان الافريقى بات يتطلب قيادات جديدة تضع حدا لعمليات الكر والفر هناك . ووقع نظره على موسى بن نصير الذى أتم اذ ذاك دراساته ، وصارت تتوافر له المؤهلات المطلوبة للعمل فى الميـدان الافريقى ، وهى الكفاية الحربية والقدرات السياسية والادارية كذلك . وهكذا أتاحت المقادير لموسى بن نصير أن يسطر للعروبة والاسلام صفحات رائعة فى شمال افريقيا ، وما جاورها من بلاد غرب أوربا .

الفصل الرابع

أمير القيروان



موسى بن نصير منصب القائد العام للميدان الافريقى سنة ٨٥ هـ / ٧٠٥ م ، فغادر مصر متجها الى مقر عمله بالقيروان ، التى أصبحت منذ أسسها عقبة ابن نافع الفهرى قاعدة للفتوح فى شمال افريقيا .

وسار النصر فى ركاب موسى بن نصير منذ ذلك الوقت دون أن يتخلى عنه لحظة واحدة . ذلك أن هذا القائد العام الجديد كشف فى جرأة عما تحلى به من مواهب عالية ، قوامها الصراحة مع الحزم ، والايمان العميق برسالته ، مع القدرة على التخطيط السليم .

واستهل موسى بن نصير مهامه الجديدة بأن شرح للجند سياسته ، وجعلهم يشعرون أنه واحد منهم . واستعان موسى ابن نصير فى توضيح سياسته بما تحلى به من بلاغة وفصاحة لسان ، وهى أمور ترفع من شأن القائد ، وتمنحه الهيبة والاجلال فى النفوس . فوقف بين الجند خطيبا وقال لهم :

« أنا رجل كأحدكم ، من رأى منى حسنة فليحمد الله ، وليحض على مثلها ، ومن رأى منى سيئة فلينكرها ، فانى أخطىء كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون . وقد أمر الأمير — أكرمه الله — لكم بعطاياكم ، وتضعيفها ثلاثا ، فخذوها هنيئا مريئا . ومن كانت

له حاجة فليرفعها الينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان ، ومع المواساة ان شاء الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله » .

وبعد هذا الخطاب الرائع بدأ موسى بن نصير يعد خططه الحربية لاستكمال فتح شمال افريقيا ، وانهاء هذه المرحلة التى طالت من مراحل الفتوح الاسلامية . وقد ساعدته دراساته المستفيضة التى قام بها فى مصر ، أيام مراحل التأهيل للميدان الافريقى ، على أن يضع خططا سليمة موفقة . وكان أول شىء استفاد منه موسى ابن نصير هو الربط بين طبيعة البيئة الجغرافية لشمال افريقيا وبين أعماله الحربية . فكل من سبقه من القادة ، ومن بينهم حسان ابن النعمان نفسه ، انطلقوا فى فتوحهم دون تنسيق بين ما تطلبه الأعمال الحربية وطبيعة الامتداد الجغرافى للبلاد . ولذا صارت جميع الحملات الحربية السابقة متشابهة فيما بينها ، لا تخرج عن كونها حملات كر وفر ، يبذل فيها الجهد العظيم والعناء الشامل دون أن تتمخض عن نتائج ثابتة راسخة .

وتجنب موسى بن نصير هذا الخطأ الذى وقع فيه أسلافه بفضل الدراسة والاعداد فى مصر . فرأى أن يعمد أولا الى تأمين المنطقة التى تقع فيها القيروان ، قاعدة الفتوح ، ولأن هذه المنطقة هى الميدان الذى بث فيه الروم نشاطهم لافساد كل تقدم للمسلمين ينطلق منها الى سائر جهات شمال افريقيا ، الدانية منها والقاصية . وكانت هذه المنطقة قد قسمت تقسيما اداريا أطلق عليه الروم أيام سيادتهم عليه اسم « افريقية » ، تمييزا له عن سائر الأقسام الادارية التى قسموا اليها الرقعة الشاسعة لامتداد شمال افريقيا من حدود مصر الى ساحل المحيط الأطلنطى .

ويعتبر موسى بن نصير أول من أدرك أهمية التقسيمات الادارية التى وضعها الروم لشمال افريقيا ، واستفاد منها فائدة كبيرة فى تنسيق خططه الحربية . وكان الروم يطلقون على القسم المتاخم لمصر اسم « أنطابلس » ، أو « بنطابلس » ، وهو اسم يونانى قديم ، ومعناه المدن الخمس ، وأحيانا يسمى باسم برقة عاصمة هذا الاقليم

الادارى . وشاهد هذا الاقليم الادارى نشاط موسى بن نصير الحربى قبيل توليه القيادة العليا للميدان الافريقى ، واستطاع أن يقضى على نشاط الروم هناك ، ويحول بينهم وبين قطع خطوط مواصلات المسلمين المارة فى تلك الأراضى .ولذا عرف موسى ابن نصير منذ بداية نشاطه الحربى طبيعة التقسيم الادارى للروم ابتداء من الحدود المصرية . اذ إقام الى جانب القسم السالف الذكر قسم آخر أطلق عليه الروم اسم « طربليطة » ، ومعناه باليونانية المدن الثلاث ، وهو الذى عرفه العرب باسم « طرابلس » . وكان هذا الاقليم يعتبر امتدادا لبرقة اداريا وجغرافيا ، دون أن يختص بميزة واضحة ، غير أنه مدخل للقسم الادارى المشهور باسم « افريقية » .

ولذا كان اهتمام موسى بن نصير بدعم مركز القاعدة الاسلامية فى « افريقية » الأساس المتين الذى شيد عليه مجده الحربى فى سائر ارجاء شمال افريقيا فيما بعد . ذلك أن هذا القسم الادارى اشتمل ــ على نحو ما كان عليه أيام الروم ــ على البلاد التونسية الحالية مع الأجزاء الغربية من طرابلس ، ثم ما امتد الى التخوم الشرقية لبلاد الجزائر الحالية الى بجاية فى ولاية قسطنطينية . ويلمس الناظر الى الخريطة الجغرافية لهذا القسم الادارى أن افريقية تعتبر عصب الامتداذ الشاسع لبلاد شمال افريقيا كلها من حدود مصر الى سواحل المحيط الاطلنطى . فأرض « افريقية » هى الحلقة التى تربط بين برقة وطرابلس شرقا ، وبين الأقاليم التى أطلق عليها الجغرافيون والمؤرخون من شمال افريقيا اسم « المغربان » الأوسط والأقصى . ومن ثم كان استقرار أقدام المسلمين فى « افريقية » معناه استقرار الفتوح بصفة دائمة فى سائر أرجاء شمال افريقيا ، وبخاصة فى المغربين الأوسط والأقصى .

وكان هذان القسمان الأخيران يجذبان انظار قادة الفتوح العربية دائما ، وهو الأمر الذى جعلهم جميعا ــ قبل موسى بن نصير ــ ينطلقون فى أراضيهما دون ادراك لأهمية دعم القاعدة الأولى فى

« افريقية » . ووقع فى تأثير هذا الاغراء الجغرافى القـــائد عقبة ابن نافع الفهرى ، الذى بلغ شواطىء المحيط ، ثم ارتد فى سرعة ، ودفع حياته ثمنا لها ، واستشهد عند تهوده . وكذلك حدث الشيء نفسه للقائد حسان بن النعمان ، الذى لم يجنبه مصير عقبة غير الامدادات الهائلة التى تلقاها من مصر فى حملته الثانية . فكانت أعمال حسان بن النعمان عبارة عن كر وفر ، وهو الأمر الذى جعل والى مصر ، عبد العزيز بن مروان يصر ذلك الاصرار العنيف على ضرورة تغيير القيادة العليا للميدان الافريقى ، ودفع اليه بالقائد موسى بن نصير .

وعبر موسى بن نصير عما اعتزم عليه من تغيير جذرى فى تنظيم العمليات الحربية فى شمال افريقيا ، فى اليوم الأول من دخـوله القيروان . اذا أعلن أنه سيوجه اهتمامه الأكبر والأعظم لتطهـــير « افريقية » من الروم وعملائهم من أهل البلاد ، حتى يتجنب بذلك المفاجآت ، التى دأب هذا المحور المعادى للمسلمين على ايقاعها بين صفوف « قادة الفتوح العربية » . وأعلن موسى بن نصير سياسته الجديدة لجنده ومستشاريه وكبار العاملين معه فى خطاب طويل بليغ ، نصه كما يلى :

«أيها الناس ، ليس أخو الحرب الا من اكتحل بالسهر، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ، ويسلم دون أن يكلم ، أو يكلم ويبلغ النفس عذرها فى غير حزق يريده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلا فى حزمه ، جازما فى عزمه ، مستزيدا فى علمه ، مستشيرا لأهل الرأى فى احكام رأيه ، متحنكا بتجاربه . ليس بالمتجابن اقحاما ، ولا بالمتخاذل احجاما . ان ظفر لم يزده الظفر الا حذرا ، وان نكب ، أظهر جلادة وصبرا ، راجيا من الله حسن العاقبة ، فذكر بها المؤمنين ورجاهم اياها لقول الله تعالى « ان العاقبة للمتقين » ، أى الحذرين » .

وكانت أحوال « افريقية » حين دخلها سيئة جدا ، بسبب

الخراب الذى حل بالبلاد على يد الكاهنة ، وبسبب سياسة عملاء الروم من أهل البلاد . فكان : « قدوم موسى افريقية وما حولها مخوف ، بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا فى العيدين لقرب العدو منهم » ، وكانت جبالها كلها محاربة لا ترام ، والسهل عامة » .

ونظم موسى بن نصير قواته تنظيما حربيا رائعا ، مستهدفا من وراء ذلك اشعار أهل « افريقية » جميعا بحزم الادارة العربية الجديدة ، واصرارها على نشر الطمأنينة والنظام فى ربوع البلاد . وعمد من أجل ذلك الى توزيع النشاط الحربى بين مجموعة من القادة العاملين تحت امرته ، على أن تكون ضرباتهم فى وقت واحد ، لتنزل الرهبة فى نفوس الأعداء ، وتسد أمامهم كل سبيل للهرب أو المراوغة والخداع . وساعد موسى بن نصير على تحقيق هذه الخطة الحربية تعاون هيئة القيادة العاملة معه . اذ تكونت من ابنائه الأربعة ، وهم : عبد الله ، ومروان ، وعبد الملك : وعبد العزيز ، وكذلك مجموعة من خيرة المحاربين العرب ، من بينهم أبناء عقبة ابن نافع الفهرى ، وهم : عياض وعثمان وأبو عبيدة ، هذا الى نفر من أهل البلاد الأصليين الذين حسن اسلامهم ، وأشهرهم طارق ابن زياد .

والى جانب هذا الاعداد السليم ، أخذ موسى بن نصير يبث الشجاعة فى نفوس جنده ويبعث الثقة فيهم . فكان يجول بين الجند ، ويتعرف أحوالهم بنفسه ، ولا يدع فرصة تمر دون أن يستفيد منها فى اعلاء روحهم المعنوية .

واتجهت الشعبة الأولى من حملات موسى بن نصير بقيادة عبد الله الخشينى الى قلعة زغوان وما جاورها ، وهى منطقة جبلية تقع بين القيروان وتونس . وكان يسكن هذه المنطقة جماعة من عملاء الروم ، شكلوا خطرا جسيما على القيروان . اذ كانوا يغيرون على المسلمين ، ويرصدون تحركاتهم ، رغبة فى انزال الفوضى بين صفوفهم . واستطاعت قوات موسى بن نصير أن تقضى على هذا الخطر الداهم ، وبعثت برأس الفتنة الى القيروان .

وفى هذا الوقت بعث موسى بن نصير بابنه عبد الرحمن الى بعض نواحى القيروان حيث أخضع العناصر الخارجة عن الطاعة هناك . وسار ابنه الثانى ، وهو مروان ، الى منطقة أخرى من افريقية ، وأنزل بالموالين للروم أشد ألوان العقـــاب ، وحملهم على احترام الادارة الجديدة . واستطاع هذان القائدان اتمام هـذه المهمة فى سرعة مدهشة بفضل ما ساد عملياتهما الحربية من تنسيق وتوقيت سليم . وشعرت أرجاء « افريقية » لأول مرة بقوة الجيوش العربية . وفى الوقت نفسه حرص موسى بن نصير على مراقبة القبائل التى اشتدت بين أفرادها دعايات الروم ودسائسهم ، ومهاجمتهم على حين غرة كلما أحس منهم ميلا للعصيان . ودأب موسى على الخروج بنفسه الى أشباه تلك القبائل لتأديبها ، وليشعرها بسطوة السلطان الجديد فى القيروان . وآتت تلك السياسة الحازمة ثمارها فى استتباب الأمن والنظام فى « افريقية » ، وغدت هذه القاعدة الهامة لأول مرة تنعم بالهدوء والطمأنينة ، وابتعد أهلها تماما عن الروم ودسائسهم . وكتب موسى بن نصير الى والى مصر عبد العزيز ابن مروان يزف اليه بشرى الفتوح الباهرة فى « افريقية » ، ويخبره بما أفاء الله به على المسلمين من غنائم وافرة . وكان سرور عبد العزيز ابن مروان عظيما حين تسلم رسالة موسى بن نصير ، وبعث بها من فوره ، مع كتاب منه ، الى الخليفة عبد الملك بن مروان ، قال فيه : « أما بعـد ، فانى كنت وأنت يا أمير المؤمنين فى موسى وحسان ، كالمتراهنين ، أرسلا فرسيهما الى غايتهما ، فأتيا معا ، وقدمت الغاية لأحدهما ، ولك عنده مزيد ان شـــاء الله ، وقد جاءنى يا أمير المؤمنين كتاب من موسى ، وقد وجته اليك لتقرأه ، وتحمد الله عليه والسلام » .

وكان عبد العزيز بن مروان على صواب حين أشار فى رسالته للخليفة أنه سيجد فى موسى بن نصير « مزيدا ان شاء الله » من الفتح . ذلك أن هذا القائد العام ما كاد يفرغ من دعم قاعـــدة الفتوح فى القيروان وافريقية » ، حتى وجه نشاطه الحربى الى بلاد

المغرب الأوسط والأقصى . واشتمل المغرب الأوسط على ما تحده بلاد الجزائر الحالية ، والمغرب الأقصى على بلاد مراكش الحالية . وكان خط التقسيم بينهما هو مجرى وادى ملوية ، أو ما بين تلمسان (عاصمة المغرب الأوسط) وتازا (مدينة المغرب الأقصى) .

وكرس موسى بن نصير حملاته نحو المغرب الأوسط ، بعد أن جعل ظهره آمنا تماما فى افريقية . فأرسل أحد قادته ، وهو عياش ابن أخيل ، الى قبائل المغرب الأوسط واستطاع أن يدخلها فى طاعة المسلمين . ويلاحظ أن التعليمات التى أعطاها موسى بن نصير الى هذا القائد كانت تنص على معاملة القبائل الراغبة فى الصلح معاملة كريمة ، وترك تدبير أمورها بيد اناس من أهلها . وفى الوقت نفسه أصر موسى بن نصير على أخذ رهائن من تلك القبائل ضمانا لاحترامها للعهود والمواثيق . وجاءت هـــذه السياسة بنتائج هامة فى تاريخ الفتوح العربية . اذ أتاحت لنفر من أهل تلك القبائل الاقامة وسط الجند العرب ، والتعرف على أهدافهم الحقيقية فى الفتح ، وهى أنهم ما جاءوا الا لنشر الاسلام ، واخراج البلاد من الظلمات الى النور ، على عكس ما كانت تصوره دعايات الروم المسمومة . ومن ثم بدأت تكثر أعداد الداخلين فى الاسلام من أهل المغرب الأوسط (بلاد الجزائر الحالية) ، وصاروا يكونون قوات جديدة تؤازر جيوش العرب .

ولم تصرف هذه السياسة موسى بن نصير عن المناطق التى رأى أنها ما زالت موضع نشاط الروم ووكلائهم . اذ عمد الى تطهير المغرب الأوسط من عملاء الروم ، على نحو ما فعل فى « افريقية » . فقصد منطقة « سجوما » ، التى شاهدت من قبل استشهاد عقبة ابن نافع الفهرى ، نتيجة دسائس الروم بين نفر من اهـــل تلك المنطقة . وكانت استعدادات موسى بن نصير واســـعة النطاق ، محكمة التدبير . فترك ابنه عبد الله نائبا عنه فى القيروان ، على حين خرج بنفسه على رأس الجيوش الكبيرة العدد لهذا الغرض . وجعل موسى بن نصير على رأس المقدمة عياض بن عقبة بن نافع الفهرى ،

وعلى الميمنة زرعة بن أبى مدرك ، وعلى الميسرة المغيرة بن أبى بردة القرشى ، وعلى ساقة الجيش نجدة بن مقسم .

ويدل هذا الاعداد الشامل على حرص موسى بن نصير على سلامة جنده ، وتقديره لخطر المهمة التى يضطلع بها ، وهو الأمر الذى كفل له بالتالى النصر التام . وزحف بجنده حتى وصل نهر ملوية ، والتقى ببقايا الجماعات التى سبق أن اشتركت مع الروم فى التصدى لعقبة ابن نافع الفهرى ، وانزال الهزيمة به . ويعد النصر الذى ناله موسى ابن نصير فى تلك الأرجاء رد اعتبار لما حل بالقائد عقبة من غدر ، واستمرار فى الوقت نفسه لسياسته الخاصة بالقضاء على عمـــلاء الروم . وعلى الرغم من المساعدات القيمة التى لقيها موسى بن نصير من أبناء عقبة فى هذه الحملة ، فانه منع أولئك الأبناء من التمادى فى الأخذ بثأر والدهم . وعاد هذا القائد المظفر بعد ذلك الى القيروان بعد أن أتم اخضاع المغرب الأوسط ، ضاربا المثل الأعلى عن القيادة الحكيمة ، فلم يقع فى اغراء الامتداد الجغرافى للبلاد ، وآثر العودة الى القيروان ليعد العدة لفتح المغرب الأقصى .

واتبع موسى بن نصير فى فتح المغرب الأقصى نفس السياسة التى سار عليها فى جميع حملاته الحربية ، وهى توزيع نشاطه الحربى فى شتى الجهات فى وقت واحد ليرهب أعداءه . ونجحت هـــذه السياسة فى أرض المغرب الأقصى ، اذ جاءت منسجمة مع بيئته الجغرافية . فالمغرب الأقصى يتصف بأن له وجهين ، أحدهما يطل على البحر المتوسط وهو المعروف ببلاد غمارة (أى بلاد الريف حاليا) ، ووجه غربى يطل على المحيط ــ المحيط الأطلنطى ــ يكتنفه جبال درن ، وهى جبال أطلس الحديثة . وهذه الواجهة الأخيرة تميز المغرب الأقصى عن بقية البلاد المجاورة له ، هذا الى أن الجبال هناك تشقها أودية الأنهار التى تتجه نحو المحيط . ومن أهم هذه الأنهار وادى سبو ، الذى يكون منخفضا فى شمال البلاد عرفه الكتاب باسم السوس الأدنى (خلف طنجة) تمييزا له عن المنخفض الآخر الواقع

فى الجنوب الغربى للبلاد ، والذى يشقه وادى سوس (الذى يصب عند أغادير) ويعرف بالنسبة له باسم « السوس الأقصى » .

وبعث موسى الى تلك الجهات بابنه مروان على رأس قوة كبيرة اتجهت الى السوس الأقصى ، على حين سير قائده زرعة بن مدرك الى القبائل المقيمة فى جبال أطلس العليا . ونجحت الحملتان نجاحا باهرا ، فقد كانت أشبه بنزهات عسكرية ، نظرا لاقبال السكان هناك على الدخول فى الدين الاسلامى . ذلك أن انتصارات موسى ابن نصير الباهرة فى « افريقية » والمغرب الأوسط جعلت سكان المغرب الأقصى يؤمنون بجدارة القيادة الجديدة ، ودخلوا طواعية فى رحابها . فلم يلق القائد زرعة أية مقاومة من قبائل مصمودة المقيمة بجبال أطلس العليا ، والتى أعلنت قبولها للعهد الجديد .

وأصبحت بلاد المغرب تدين بالطاعة لموسى بن نصير ، من صحراء درعة الى السوس الأقصى الى بلاد المصامدة . ولم يبق أمام هذا القائد المظفر غير بعض المدن الساحلية بالمغرب الأقصى ، التى كانت تخضع لأمير من الروم اسمه يوليان . فاتجه موسى أولا نحو طنجة والجهات المجاورة لها ، وهى المعروفة باسم السوس الأدنى . واستطاع هذا القائد الاستيلاء على تلك البلاد فى سهولة ويسر ، فقد دخلت قبائلها من السكان الأصليين فى الطاعة للعهد الجديد دون مقاومة . وكان لهذا النصر الباهر أثر كبير فى اكمال الصورة التى جهد موسى بن نصير رسمها لبلاد المغرب . ذلك أن طنجة لم تكن مدينة فحسب ، وانما كانت عبارة عن ولاية كبيرة تشمل السوس الأدنى ، وأهلها معروفون بميلهم نحو الحضارات القديمة التى وصلتهم من بلاد اليونان والرومان ، هذا الى خبرتهم بأحوال غرب البحر المتوسط .

وأظهر موسى بن نصير اهتماما خاصا بتلك الجهات المغربية ، اذ اختار رجلا من خيرة رجال البربر المسلمين ، وهو طارق بن زياد ليتولى حكم ولاية طنجة . وجاءت هذه الخطوة عملا جليلا كشف

عما تحلى به موسى بن نصير من كفاءة ادارية عالية ، وسياسية مثالية أيضا . ذلك أن سكان ولاية طنجة كانوا يمثلون جماعات عديدة من قبائل البربر وفى استطاعة شخص من أهل البلاد أن يؤلف قلوبهم ، وينظم حياتهم فى ظل العهد الاسلامى الجديد . وترك موسى بن نصير مع طارق بن زياد حامية فى طنجة بلغ عـــددها ١٧٠٠ جندى ، وكذلك نفر من فقهاء العرب لتعليم السكان قواعد الاسلام وأصول الشريعة . وآتت سياسة موسى بن نصير ثمارها سريعا ، فقد أقبل سكان طنجة والسوس الأدنى على اعتناق الاسلام ، والانضمام الى القوات المرابطة هناك ، حتى بلغ عددها اثنا عشر ألف جندى ، كلهم مثال للطاعة والنظام .

ولم يبق أمام موسى بن نصير غير مدينة استعصت عليه فى ولاية طنجة وهى مدينة سبتة ، مقر أمير الروم ، المسمى يوليان . ويبدو أن موسى بن نصير تعمد ألا يضيع وقته أمام هذه المدينة التى صار لا حول لها ولا طول بسبب احاطتها من كل جانب بالقوات الاسلامية . وفضلا عن ذلك فانها قريبة من طنجة بحيث يسهل مراقبتها ومراقبة أى نشاط يصدر منها . وفى نفس الوقت كان موسى بن نصير ، وقد دانت له بلاد المغرب ، يفكر فى الافادة من مدينة سبتة ، لمراقبة سكان شبه جزيرة أيبيريا ، والاطلاع على أحوال تلك البلاد التى صارت تجاوز أرض ولايته . فكان الابقاء على سبتة بيد يوليان وسيلة تضمن للمسلمين دراسة الأحوال السياسية عند جيرانهم الأوربيين ، والذين لا يفصلهم عن سبتة سوى مضيق من المياه ، اطلق عليه العرب اسم « بحر الزقاق » (وهو الذى عرف فيما بعد باسم مضيق جبل طارق) . وقد شاءت الأقدار أن تثبت صـــدق فراسة موسى بن نصير حين آثر ارجاء السيطرة على ســـبتة ، اذ أصبحت هذه المدينة فعلا نافذة أطل منها العرب فى بلاد المغرب على غرب أوربا ، وهيأت لهم الأسباب لحمل راية الاسلام الى تلك البقاع الجديدة .

وبعد أن اطمأن موسى بن نصير علـــى اقرار الأوضاع فى ولاية طنجة ، ترك بها طارق بن زياد ، وعاد الى القيروان ليكمل خططه فى تأمين أرجاء الولاية الشاسعة ، التى آلت اليه . ومن القيروان رأى موسى بن نصير أن يعجل بدعم البحرية العربية وبث النشاط فى أساطيل العرب ، ليطيح بالروم نهائيا من قواعدهم فى الجزر القريبة من أرض المغرب ، وليمهد السبيل للسيادة العربية الاسلامية على مياه غرب البحر المتوسط . وكان السبب فى هذا الاهتمام البحرى هو التربية الأولى التى عاشها موسى بن نصير ، وهو فى صدر شبابه ، أيام أن عمل مع والده فى خدمة معاوية بن أبى سفيان . اذ شاهد اهتمام البيت الأموى بانشاء الأساطيل ، وحرص معاوية خاصة على مهاجمة الجزر القريبة من الشام والتى اتخذها الروم قواعد لهم يهددون منها سلامة الشواطىء الشامية والمصرية التى آلت الى العرب المسلمين . وتعلم موسى بن نصير من ذلك أن الامتداد البرى لا يكفى لتأمين الفتوح واستقرارها ، وأن سلامة بلاد المغرب تتطلب بث النشاط البحرى فى مياه غرب البحر المتوسط ، وخاصة أن للروم قواعد كبيرة هناك ، وباستطاعتها ازهاق العرب والبربر فى بلاد المغرب .

وزاد من ايمان موسى بن نصير بأهمية بناء بحرية عربية قوية لبلاد المغرب ما شاهده من محاولات الروم المتكررة للاغارة عـــلى شواطىء شمال افريقيا ، وقطع خطوط الامدادات والتموين ، وخاصة أيام قادة الفتوح الذين سبقوه فى العمل فى الميدان الافريقى . وكان من المتوقع أن يستأنف الروم هذا النشاط البحرى بعد أن زالت دولتهم من شمال افريقيا ، وخاصة أنهم كانوا قد رتبوا حياتهم على أساس الاعتماد على مايرد اليهم من قمح المغرب ، وغيره من منتجات تلك البلاد ، اللازمة لأود الدولة وكيانها .

واستهل موسى بن نصير أعماله فى هذا الميدان الجديد بتوسيع دار الصناعة التى سبق أن شيدها حسان بن النعمان فى مدينـــة

تونس . وكانت دار الصناعة تقوم ببناء السفن الحربية ، ويعمل بها عدد كبير من مهرة الصناع المصريين الذين سبق أن بعث بهم والى مصر عبد العزيز بن مروان الى تلك القاعدة البحرية لانشائها ، ودعم نشاطها . والى جانب ذلك نظم موسى حركة الملاحة فى هذه القاعدة البحرية ، بما يكفل لأساطيل العرب فيها الحماية والسلامة . فكانت قاعدة تونس تقع على بحيرة بالقرب من شاطىء خليج قرطاجنة ، وتسير السفن من تونس فى البحيرة ، وتخرج الى مياه البحر المتوسط عن فتحة فى البحيرة يقع عليها مرسى يعرف باسم « رادس » . ولما كانت البحيرة ضحلة لا تسمح أحيانا بمرور السفن الحربية ، فقد أمر موسى بن نصير بشق قناة بين مرسى رادس والقاعدة فى تونس ، طولها اثنا عشر ميلا . وبفضل هذه القناة أصبحت المدينة نفسها مشتى للمراكب الحربية تحفظها من العواصف والأنواء . وبالاضافة الى ذلك كان يمكن اغلاق هذه القناة عند اتصالها بالبحر بواسطة سلسلة قوية ، على نحو ما كان متبعا فى المدن البحرية فى العصور الوسطى .

ونتيجة تلك التنظيمات التى قام بها موسى بن نصير ازداد عمران تونس ، وبدأت تحقق الهدف من انشائها ، وهى « أن تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر .. وأن يصنع بها المراكب ولتجاهد الروم فى البر والبحر ، وأن يغار منها على ساحل الروم » . ثم قامت الدعايات لحث المجاهدين على المرابطة فى هذه القاعدة ، ومن أمثلة ذلك ما يقال من أن علماء المشرق كتبوا الى أهل افريقية : « من رابط عنا برادس يوما واحدا حججنا عنه حجة » . وتكشف الرواية الأخيرة عن مدى اهتمام المشرق العربى بشقيقه المغرب فى هذه الفترة المبكرة من تاريخه ، وتشجيع النشاط البحرى لحماية هذه الرقعة الجديدة من دار الاسلام .

وبدأ موسى بن نصير يخطو بنشاطه البحرى من نصر الى نصر . ذلك ان الأساطيل العربية من المغرب نجحت فى صد عدوان الروم

عن شواطىء شمال افريقيا ، وقضت على سياسة هذا العدو فى قطع مواصلات العرب فى تلك الأرجاء الشاسعة . وتردد صدى ذلك فى ازدياد عمران القيروان وازدهار الحياة فيها . اذ وقفت قاعدة تونس البحرية تحميها ، وتجنبها ما سبق أن تعرضت له من كر الروم وعملائهم ، واخراج القوات العربية منها . والمعروف ان الاستقرار والطمأنينة من العوامل الهامة التى تساعد على اتساع المدن وتقدمها فى ميدان الحضارة . ومن ثم بدأت القيروان تجنى على عهد موسى بن نصير ثمار نشاطه البحرى المبكر ، وتتفرغ لأداء رسالتها فى نشر الثقافة العربية الاسلامية بين السكان الأصليين . ولم يكتف موسى بن نصير باتباع سياسة الدفاع البحرى ، وانما أعد الأساطيل لتقوم بالهجوم على قواعد الروم القريبة من شمال افريقيا ، ويثبت لهذا العدو الخطر أن يد العرب القوية وراءهم فى كل مكان ، وليحطم كل فكرة قد تراود الروم فى الهجوم على المغرب أو الاتصال بأهله . واستهدفت سياسة موسى بن نصير الهجومية الاستيلاء على جزيرة قوصرة ، وهى المشهورة اليوم باسم « بنطلارية » ، لأن تلك الجزيرة قريبة من تونس ، ومن ثم تتمتع بموقع ممتاز يساعد على الدفاع عن شمال افريقيا . وفى الوقت نفسه تقترب تلك الجزيرة من جزيرة صقلية التى كانت تمثل القاعدة الكبرى لأسطول الروم فى غرب البحر المتوسط ، ولذا تصلح قوصرة لأن تكون مركزا لمناورات هذا الأسطول وشل حركات الروم ، ومراقبتها فى الوقت نفسه .

وأشاد الجغرافيون والرحالة العرب بهذا الموقع الممتاز لجزيرة قوصرة : « لأنها قبالة افريقية بالقرب من تونس ، وبينها وبين صقلية مجرى » . وبذلك كشف اتجاه المسلمين البحرى فى بلاد المغرب عن أهمية تونس ، وعن عبقرية موسى بن نصير فى هذا الميدان الحربى الجديد . اذ صمم هذا القائد على الاستيلاء عليها سنة ٨٨ هـ / ٧٠٧ م ، وانتدب لقيادة الحملة البحرية التى أعدها أحد رجاله الأبطال ، وهو عبد الملك بن قطن الفهرى . اذ خرج هذا

القائد على رأس أسطول قوى من تونس ، واستولى على جزيرة قوصرة ، وضمها الى ولاية افريقية .

وسرعان ما ظهر نشاط الأسطول العربى من قاعدته فى جزيرة قوصرة . اذ خرجت سفنه منها تباعا ، وأغارت على صقلية ، وأنزلت بها وبأسطول الروم الراسى فى موانيها التخريب والتدمير . ووقفت تونس وراء هذا النشاط البحرى كله ، فقد أنتجت دور الصناعة فيها السفن على اختلاف أنواعها ، وشحنها بالعدة والعتاد لنشر راية الاسلام . وكان من أشهر حملات الأسطول العربى على صقلية الحملة التى قام بها عياش بن أخيل اذ أغار على مدينة سرقوسة ، وغنم « جميع ما بها ، وقفل سالما » ، بعد أن أنزل الرعب فى نفوس بحارة الروم وأمراء بحارهم .

واتسم النشاط البحرى الذى أعده موسى بن نصير بقيام تعاون رائع بين أساطيل المغرب وأساطيل مصر . اذ تعاونت السفن الحربية من هذين القطرين على ضرب الروم فى قواعدهم بغرب البحر المتوسط ، دون خشية أو رهبة . فكثيرا ما اقتضت العمليات الحربية البحرية القيام باغارات فى أوقات غير مناسبة ، بسبب رداءة الجو ، ولكن تحت ضغط مقتضيات الظروف ، ولتأديب الروم . ومن ذلك الحملة البحرية التى خرجت من مصر وعلى رأسها عطاء ابن رافع الهزيلى ، اذ تعاونت مع أسطول المغرب فى الاغارة على جزيرة سردانية وقد تحطم كثير من سفن الأسطول العربى أثناء عودته بسبب اضطراب الأحوال الجوية وبعث موسى بن نصير حملات تفتيشية على الشاطىء لانقاذ الأشخاص الذين قذفت بهم الأمواج . ولم يعد موسى بن نصير يسمح بمثل هذه الاغارات حفظا عن سلامة البحارة وأساطيلهم .

ولم يلبث موسى بن نصير أن وجه النشاط البحرى من تونس وجهة جديدة كان لها أثرها البعيد فى خلق ميادين جديدة شاسعة أمام المسلمين . فبعث أساطيله لمطاردة الروم فى قواعدهم بجزر

ميورقة ومنورقة ، وهى التى تقع على مقربة من أسبانيا ، التى حكمها اذ ذاك دولة القوط الغربيين . واستطاعت الأساطيل العربية المغربية السيطرة على تلك الجزر ، وتأمين بلاد المغرب الأقصى من اغارات الروم البحرية المفاجئة ، وأصبحت شواطىء شمال افريقيا تنعم بالازدهار والاستقرار .

غير أن هذا الفوز نقل المسلمين فى بلاد المغرب من الميدان الافريقى الى ميدان جديد آخر ، عظيم الروعة والاتساع . اذ فتح أعين موسى بن نصير على رقعة كبيرة من بلاد غرب أوربا ، وهى شبه جزيرة أيبيريا ، وبدأ يفكر جديا فى العمل على نشر الاسلام بين أرجائها . فكانت جزر ميورقة ومنورقة قريبة من الساحل الشرقى لأسبانيا ، وتصلح لأن تكون بدورها قواعد للتوسع فى تلك البلاد .

وبذلك صار أمام كل من القيروان وتونس ، على عهد موسى ابن نصير ، مهمة جديدة رائعة ، وهى اعداد المسلمين للانتقال الى أوربا نفسها ، ونشر الاسلام بين ربوعها ، ولا سيما فى أبهى جهاتها وهى شبه جزيرة أيبيريا . وأخذت بلاد المغرب تدخل بذلك ميدان الحضارة العالمية ، حيث نهض بهذا الدور أهلها ، الذين تسابقوا الى اعتناق الاسلام ، ورفع رايته فى غرب البحر المتوسط .

وشاءت الأقدار ألا يمتد العمر بوالى مصر ، عبد العزيز بن مروان ، ليشاهد بنفسه صدق فراسته وحسن اختياره لموسى ابن نصير ليتولى القيادة العليا فى الميدان الافريقى . اذ توفى هذا الوالى سنة ٨٥ هـ / ٧٠٥ م ، وموسى بن نصير فى المراحل الأولى من مجده . وفى العام التالى توفى أيضا الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولحق بأخيه الى جوار الرفيق الأعلى . ولم يتأثر مركز موسى ابن نصير بتلك الأحداث ، لأن الخليفة الجديد ، وهو الوليد ابن عبد الملك ، سار على نهج عمه عبد العزيز بن مروان فى تشجيع موسى بن نصير ، وتقديم كل المساعدات له لاتمام رسالته العظمى فى الميدان الافريقى .

وزاد فى مكانة موسى بن نصير لدى الخليفة الجديدة شـــدة الارتباط الذى كان بين هذا القائد وأسرة عبد العزيز بن مروان . اذ تزوج الوليد من ابنة عمه عبد العزيز بن مروان ، وخرج موسى ابن نصير مع ركب العروس الى الشام ، دلالة على علو مكانته الخاصة والعامة أيضا لدى والد العروس . وصارت زوجة الخليفة الجديد من أهم الأسباب التى ساعدت على دعم مركز موسى بن نصير ، حيث أشادت به وبخدماته لآل بيتها .

وأصبح موسى بن نصير ينعم بمركز ممتاز فى مقر ولايته الجديد ، جعله حريا أن يلقب باسم « أمير القيروان » . وبدأ موسى بن نصير يراسل الخلافة فى دمشق مباشرة بعد وفاة عبد العزيز بن مروان ، دلالة على علو شأنه . ولكن والى مصر ، الذى خلف عبد العزيز ابن مروان ، وهو عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، عز عليه أن يتجاهله موسى بن نصير ، وخاصة أن عبد الله من بيت الخلافة وعريق فى مكانتها . وكتب الوالى الجديد رسالة الى موسى بن نصير يؤنبه فيها على اتصاله بالخلافة مباشرة ، ويحاول أن يسفه من قدره . وجاء فى تلك الرسالة قول عبد الله لموسى بن نصير :

« أما بعد : فانك كنت من عبد العزيز وبشر (وهو أخـــو عبد العزيز بن مروان) بين مهادين تعلو عن الحضيض مهودهما ، ويدفئك دثارهما ، حتى عفى مخبرك ، وسمت بك نفســـك ، فلا تحسبنى كمن كنت تخلبه ، وأيم الله لأضعن منك رفعا ، ولأقلن منك ما كثرا » .

ورد موسى بن نصير على عبد الله ردا قويا ، كشف عما يتحلى به من بلاغة ، ومقدرة أدبية رائعة ، فقال فى رسالته :

« أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما وصفت فيه من اركانى الى أبويك وعمك ، ولعمرى أن كنت لذلك أهلا . ولو خبرته منى ما خبرا لما صغرت منى عظيما ، ولا جهلت من أمرنا ما علما .

وأما تهددك اياى بأنك واضـــع منى ما رفعا ، فليس ذلك بيدك ولا اليك ، فارعد وابرق لغيرى » .

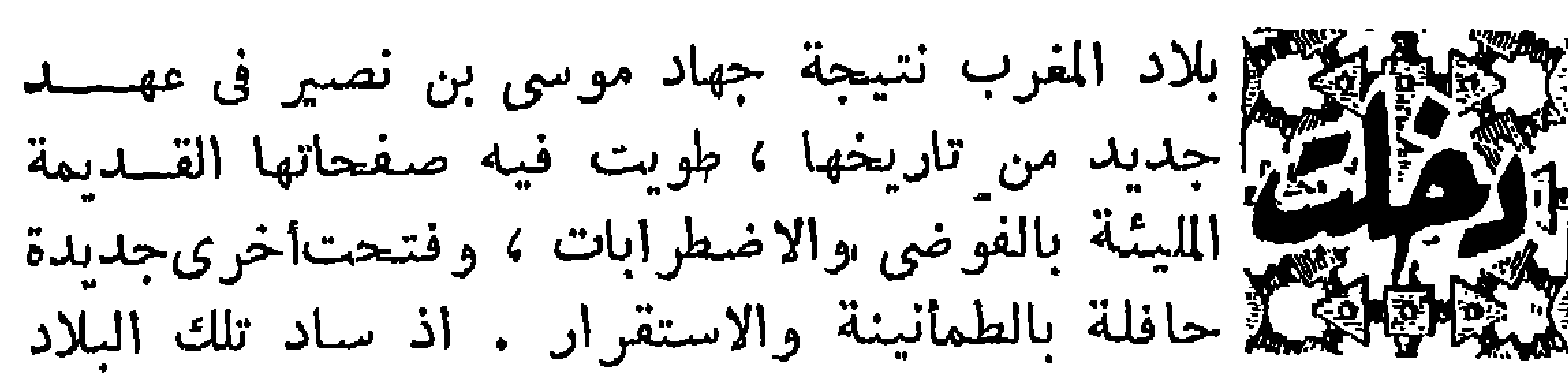
ولما وصل هذا الرد العنيف الى عبد الله بن مروان استبد به الغضب ، وكتب خطـــابا الى والده ، وكان اذ ذاك هو الخليفة عبدالملك بن مروان ، وأرفق به رسالة موسى بن نصير . ولكن قبل أن يصل هذا الخطاب توفى الخليفة عبد الملك ، واستلم الخليفة الجديد ، وهو الوليد خطاب عبد الملك ن مروان رســالة موسى بن نصير . وعلق الوليد بن عبد الملك على رسالة موسى بن نصير ، وموقف عبد الله بن مروان قائلا :

« لله درة (أى موسى بن نصير) ، أن كان عنده لأثرة من علم ، ولقد كان عبد الله غنيا أن يتعرض له » .

وعزل الخليفة الوليد والى مصر عبد الله بن مروان ، الذى ثبت سوء ادارته ، على حين أطلق يد موسى بن نصير فى شمال افريقيا ، وهيأ له نشر الاسلام فى تلك الجهات ، ودعم أركان الدين الحنيف بين أهلها ، حتى صار يطلق على شمال افريقيا اسم « الجناح الأيسر للاسلام » .

الفصل الخامس

الجناح الأيسر للإسلام



بلاد المغرب نتيجة جهاد موسى بن نصير فى عهد جديد من تاريخها ، طويت فيه صفحاتها القديمة المليئة بالفوضى والاضطرابات ، وفتحت أخرى جديدة حافلة بالطمانينة والاستقرار . اذ ساد تلك البلاد الشاسعة الممتدة من حدود مصر الغربية الى المحيط الأطلسى السكينة والهدوء فى ظل الاسلام ، فضلا عما صار لها من قوة وهيبة ورسالة حضارية فى حوض البحر المتوسط الغربى .

وكانت هذه الحقيقة حدا فاصلا فى تاريخ المغرب ، اذ عجزت الحضارات القديمة التى وصلت الى تلك البلاد ـ وهى الاغريقية والرومانية ـ عن ادخال السكان فى نطاقها ، واقتصرت تأثيرها على بعض مدن ضئيلة ، مبعثرة على طول الشريط الساحلى لشمال افريقيا . وكان الرومان يطلقون كلمة « بربر » ـ على نحو ما فعل اليونان من قبل ـ على جميع العناصر التى لا تدين بحضاراتهم ، أو التى تأبى الدخول فى ميدان تلك الحضارات . ومن ثم أطلق الرومان كلمة « بربر » على سكان شمال افريقيا الذين رفضوا فى أباء وشمم الانضواء تحت لواء الحضارة الرومانية . وظل هذا الاسم شائعا حتى عصر الفتوح واستخدمه المسلمون ـ ليس فى نفس المعنى الرومانى ـ ولكن باعتباره علما يخلد صمود « البربر »

أمام غزو الحضارات القديمة الطاغية ، ورمزا الى اعتزاز اولئك البربر بشخصيتهم ومقومات حياتهم .

وارتبطت بداية هذا العهد الجديد فى تاريخ المغرب بموسى بن نصير ، لأن هذا القائد أدرك ان ازدهار ولايته رهن بخلق ادارة عربية مثالية ، قادرة على أن تحق هدفين فى وقت واحد ، أولهما : كسب ثقة السكان الأصليين بأن تثبت لهم أن العهد الجديد يختلف كل الاختلاف عما سبق أن شاهدوه فى عهدى اليونان والرومان . وثانيهما : العمل على نشر الاسلام بين السكان ، واخراجهم من ظلمات الفرقة والانقسامات الدينية الى نور الاسلام ووحدته المثالية .

ولم يكن عمل الادارة العربية فى بلاد المغرب أمرا هينا ، وانما كان عليها أن تعبد الطريق أولا فى أناة وصبر . فكان على تلك الادارة أن تبدأ بازالة الرواسب التى تخلفت عند سكان البلاد نتيجة الطغيان الذى تعرضوا له سنين طويلة من أصحاب الحضارات القديمة التى وفدت الى بلادهم . وتمثلت تلك الرواسب فيما انطوت عليه نفوس الأهالى من خوف وكراهية لكل لون من الوان السلطان . وكانت بلاد المغرب قد آلت قبل أن يمتد اليها الفتوح العربية الى دولة الروم ، التى ورثت سياسة أمها الامبراطورية الرومانية الكبرى فى تلك البلاد ، وهى العمل على سلب ثروات الأهالى ، وتسخيرهم فى جميع الأعمال دون شفقة أو رحمة .

وبلغت مساوىء الروم أقصاها فى الفترة التى دخل فيها العرب المسلمون بلاد المغرب . ذلك أن الروم بعد أن فقدوا مصر ، التى دخلت فى حظيرة الاسلام ، ركزوا استغلالهم على بلاد المغرب . اذ كانت مصر تمد دولة الروم بالغلال ، فأصبحت بلاد المغرب هى المصدر الباقى للروم ، الذين ازداد ضغطهم على أهل المغرب للعمل فى الحقول ، ثم نهب نتاج أيديهم ليعيش عليه سكان العاصمة

القسطنطينية . ولم يكتف الروم بذلك ، وانما جهدوا فى جمع المال، فقد أصبحت الضرائب هي الغاية الوحيدة للادارة وعمالها ، الذين بالغوا فى عسفهم بالسكان . ومن ثم لم يجد المواطنون بدا من ترك مزارعهم ومتاجرهم والنجاة بأنفسهم . وزاد الحالة سوءا فى المغرب أن الروم عمدوا الى احاطة ممتلكاتهم فى تلك البلاد برباطات قوية من الحصون المتقاربة ، وأقامت فى كل رباط طائفة من الجنود للدفاع عنه . وأسرفت ادارة الروم فى ذلك اسرافا شديدا ، فلم تكتف برباط واحد ، بل أقامت ثلاثا وأصبحت البلاد شبكة من الحصون والقلاع .

واخطأت ادارة الروم فى تلك السبيل ، اذ أشعرت الأهالى بسوء نيتها ، ونشأت بين الجانبين حالة من العداء والكراهية . فكانت الرباطات وكثرة الجند بها سببا فى حمل الأهالى على أن يقفوا من الروم موقف العداء ، وأن ينبذوا كل ما يتصل بهم من حضارة ولغة . وفى الوقت نفسه قسمت الرباطات البلاد قسمين : القسم الأول الساحلى الذى تجلت فيه ادارة الروم وحضارتهم ولغتهم ، والقسم الثانى الداخلى ، الذى بقيت فيه جماعات السكان الأصليين « أى البربر » محتفظة بما لها من شخصية واستقلال . وخلق هذا التقسيم حالة مستمرة من الاحتكاك بين الروم والبربر، الذين ازدادت هجماتهم على الرباطات والاستيلاء عليها واحدة فواحدة . واضطر الروم الى الانسحاب أمام هجمات البربر حتى صار سلطانها مقصورا على شريط ساحلى ضيق ، تعيش مدنه فى حالة من الخراب والفوضى الشاملة .

وواجهت الادارة العربية على عهد موسى بن نصير هذه الحالة الموحشة لبلاد المغرب ، تلك الحال التى ألجأت أهلها الى السكون بعد أن أفقرتهم المنازعات المتعددة وارهاق عمال الروم . فاتجهت الادارة العربية الى بث الحياة فى السكان ، وذلك بالعمل على تكريمهم ورفع شأنهم ، والتأكيد لهم بأن النظام الذى وضع للبلاد

فى العهد الجديد يهدف الى حماية حقوقهم وأموالهم من عدوان الحكام . وكانت هذه السياسة العربية هى النافذة التى أطل منها البربر على حقيقة الادارة الجديدة ، والطريق الذى جذبهم الى عمالها ، والسبيل الذى استأصل من نفوسهم ما سبق أن غرسه الروم فيها من كراهية للسلطان ورجاله .

وحرص موسى بن نصير على أن يضرب المثل بنفسه على سهر عمال الادارة العربية على مصالح السكان ، ومشاركتهم فى السراء والضراء . فروت المراجع أن موسى بن نصير داب على الخروج لمواساة الناس فى أثناء المجاعات التى ـضوا لها ، وتنظيم الأقوات اللازمة لهم . فخرج مع الناس مرة الى الصحراء للاستسقاء ، ومعه سائر الحيوانات .... وأقام فيها الى منتصف النهار ، ثم صلى وخطب فى الناس ، ولم يذكر بن عبد الملك . فقيل له : ألا تدعوا لأمير المؤمنين . فقال : هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى « . واستجابت السماء لصلاة الاستسقاء ، وانهمرت الأمطار ، وبدأت البلاد تعمر بالزروع والأقوات .

وبذلك وضع موسى بن نصير الأساس السليم للادارة العربية ، وهى العمل على احترام المواطن المغربى والسهر على خدمته ومطالبه . ونجحت الادارة العربية بذلك نجاحا باهرا ، وزاد هذا النجاح قوة وانطلاقا السياسة الرشيدة التى انتهجتها الادارة العربية فى تحديد علاقاتها بسكان شمال افريقيا بعد استقرار الفتوح . اذ اعتبرت الأراضى التى كانت للروم أراضى مفتوحة عنوة ، واعتبروا من بقى من الروم وتابعيهم موالى يتصرفون فى شئونهم كما يريدون ، على حين اعتبروا الأراضى التى كانت تابعة « للبربر » ، وهم السكان الاصليون للبلاد ، أراضى مفتوحة صلحا ، وتركوها فى يد أصحابها يؤدون عنها المال للدولة ، واعتبروا البربر أنفسهم أحرارا ، لهم ما للعرب من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات .

واقتضى هذا الأمر اتاحة أكبر قدر من الحرية للبربر فى تصريف شئونهم ، وهو الأمر الذى لم يألفوه من قبل على عهد الروم . فتركت الادارة العربية لكل قبيلة من قبائل البربر « خطة » ، تتصرف فيها وتؤدى مالها وتكون مسئولة عنها . وجاءت هذه الخطوة السديدة ثمرة لدراسة العرب لأحوال السكان من البربر، لأن هذا النظام يتفق مع طبيعة البلاد ونظام أهلها الاجتماعى ، وجعلت حلقة الصلة بين رجال الادارة العربية وأهل القبائل وثيقة العرى ، تقوم على أساس من الاحترام المتبادل والثقة الكاملة .

ونظمت الادارة العربية على عهد موسى بن نصير أساليب الامتزاج الفعلى بين العرب والبربر ، وذلك باتاحة الفرصة أمام السكان الأصليين للاشتراك فى الجيوش العربية . وكان القادة الذين سبقوا موسى بن نصير من أمثال عقبة بن نافع الفهرى وحسان بن النعمان قد سلكوا تلك السبيل . ومن ثم وضعت الادارة العربية القواعد التى تكفل للبربر المساواة بالعرب بشكل عملى ودقة كاملة . فسوت الادارة العربية بين العرب والبربر فى تقسيم مغانم الحروب ، وما يرتبط بذلك من حقوق . ومهد ذلك التمهيد لغرس بذور الحضارة العربية الاسلامية فى بلاد المغرب . فكان تقسيم الغنائم بالتساوى يشرح للبربر رسالة الاسلام ، وهى أن العربى ليس حاكما وزميله من البربر محكوما ، وانما الاثنان سواء فى الحقوق والواجبات ، والاشتراك فى الحروب والجهاد فى سبيل الله .

وكان للادارة العربية دواوين تنفذ سياستها فى بلاد المغرب ، وتتولى الاشراف على مصالح العرب والبربر على قدم المساواة . وكان أهم تلك الدواوين ، هو ديوان الجند ، الذى ينظم توزيع « العطاء » ، أى رواتب الجند . وصار هذا الديوان يسجل أسماء الجند من أبناء المغرب ، ويصرف لهم عطاءهم كذلك . وضرب موسى بن نصير عملة من النحاس والبرنز ، لكى يعطى الجند من

العرب والبربر أعطياتهم . وكانت الخلافة الأموية أمرت بتعريب الدواوين فى كل من مصر والشام والعراق ، وضربت كذلك نقودا عربية بدلا من النقود التى سبق استخدامها على عهد الفرس والروم . ومن ثم جاءت خطوات موسى بن نصير فى تنظيم الادارة العربية ببلاد المغرب وضرب عملة عربية هناك ، جاءت سبيلا لربط هذا الشطر الجديد بالأراضى العربية فى المشرق وهيأت له السير جنبا الى جنب مع قرنائه من البلاد العربية الفتية دون تأخير أو ابطاء .

وساعد الادارة العربية فى بلاد المغرب على الانطلاق السريع فى أداء رسالتها ما تمتع به موسى بن نصير من سلطان مطلق فى تصريف الأمور . فكان صاحب الكلمة العليا بتفويض من الخلافة فى انتقاء العمال الذين بعث بهم الى شتى جهات المغرب . وثبت أن أولئك العمال كانوا على درجة عالية من الكفاية والمقدرة لتنفيذ خطة الادارة العربية . واستطاع موسى بن نصير احكام الرقابة الادارية على العاملين فى المغرب بفضل اعتماده على أبنائه . وأصبحت بلاد المغرب تشعر لأول مرة فى تاريخها بسلطان الادارة ، وحرص القائمين عليها فى الوقت نفسه على استكمال أسباب الرفاهية والطمأنينة للأهالى .

وغدت القيروان على عهد موسى بن نصير مقر الوالى ومركز الدواوين الكبرى ، ومصدر الادارة والسلطان . وكفل هذا التنظيم الادارى لبلاد المغرب الاستقرار والهدوء ، وأخذ السكان يألفون العرب وادارتهم ، ويفدون على العاصمة لقضاء حاجتهم فى طمأنينة وسلام . وبذلك هيأت الادارة العربية وكفايتها السبيل أمام الاسلام لينتشر بين البربر ، الذين وجدوا فيه الخلاص من متاعبهم كلها ، سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية ، كما رأوا فيه الطريق الأمثل لاستعادة سالف مجدهم فى ميدان الحضارة الانسانية .

ونهضت الادارة العربية برسالتها فى نشر الاسلام بين البربر فى جد واجتهاد . وكان الاسلام قد وجد طريقه الى نفوس نفر من سكان البلاد منذ دخلتها الجيوش العربية ، وبخاصة أيام عقبة بن نافع الفهرى . ذلك أن بناء القيروان ساعد على اجتذاب من حولها من السكان الى تعليم الدين الاسلامى ، وبخاصة بعد أن تهيأت لهم أسباب الاتصال بالعرب . وفضلا عن ذلك فان سياسة قادة العرب فى اشراك جند من البربر مع جند من العرب فى الفتوح والحرص على المساواة بين الفريقين فى المغانم والعطـــاء ، هيأ السبيل لانتشار الاسلام فى قوة وايمان بين البربر ، الذين وجدوا فى العرب اخوة فى الدين ، لا طغاة مستبدين .

ولم يجد العرب فى الوقت نفسه أية صعوبة تحول بينهم وبين الاختلاط بالبربر ، وانما وجدوا أحوال أولئك السكان تشجع على الامتزاج السريع بهم ، والانصهار معا فى بوتقة الدين الاســلامى . ذلك أن العرب رأوا أنفسهم أمام سكان يجمع بينهم وجه شبه عظيم جاء وليد الاتفاق بين البيئة التى ينتمى اليها كل منهم . فطبيعة بلاد المغرب ، التى يغلب عليها الطابع الصحراوى أشبه بطبيعة بلاد العرب ، وهو الأمر الذى ترتب عليه نتائج ذات طبيعة متشابهة من حيث الاجتماع والعمران . فالبربر عرفوا التنظيم القبلى مثــل العرب ، وعرفوا حياة الحضر والاستقرار ، كما عاشوا فى حيــاة التنقل والبداوة . وأنتج هذا التشابه فى العمران عادات وتقاليد مؤتلفة ، كما ساعد على خلق عبقرية متجانسة تربط بين أصحابها فى سرعة ويسر .

وشاهد العرب بذلك أن البربر ينقسمون قسمين : ســكان الوبر ، أى سكان الخيام ، وسكان المدن ، أى سكان البيوت . ويقال للقسم الأول «البتر» وهم أهل البداوة والرحلة ، وللقسم الثانى « البرانس » ، وهم أهل الاستقرار والاتصال بأسباب الحضارة ، وبدأ الاسلام فى الانتشار أولا بين قبائل البتر ، وهى القبائل التى

تسكن المناطق الجنوبية من المغرب بسبب كثرة وجه الشبه بينها وبين العرب . واشتهر من تلك القبـــائل التى عرفت بالسبق الى اعتناق الاسلام : زناته ، ونفوسة ، ومصمودة .

وامتدت أرض تلك القبائل فى المنطقة من حــــدود مصر الى المغرب الأوسط ، وهى منطقة شاسعة تحتـــاج الى تنظيم لدعم أركان الدين الاسلامى بين أهلها . اذ اقتصر الأمر قبل قيام الادارة العربية على عهد موسى بن نصير ، على اسلام نفر من سكان تلك القبائل نتيجة اتصالهم بالجند العرب ، ثم بقائهم على دينهم اما سرا أو جهرا ،كل حسب ايمانه ، وموقفه بعد ارتداد الجيوش الاسلامية عن شمال افريقيا . ولكن باستقرار الأوضاع على عهـــد موسى ابن نصير بدأ المسلمون من البربر يعلنون ايمانهم وحماستهم للدين الجديد ، ويعملون على حمل لوائه بين جيرانهم من أهل البـــلاد ، وبخاصة بعد اشتراكهم مع الجيوش العربية فى الفتوح .

وأخذ الاسلام ينتشر سريعا من الجهات الداخلية لبلاد المغرب الى المناطق الساحلية ، وانتهى الأمر برسوخ الاسلام فى « افريقية والمغرب الأوسط » . وتوج موسى بن نصير جهاده فى تلك السبيل بنشر الاسلام فى المغرب الأقصى كذلك . وأشارت المراجع الى هذه الحقيقة الهامة فى تاريخ البلاد . فقد ذكرت أنه فى عهـــد موسى ابن نصير « تم اسلام المغرب الأقصى » ، وحول المنابر هناك « (أى بيوت العبادة القديمة) الى القبلة ، وجعلوا المنابر فى مســـاجد الجماعات ، ومنها مسجد أغمات هيلانة » .

وساعد على اقتلاع جذور المعتقـدات الدينيـــة القديمة من السكان المحليين ، وتثبيت أركان الدين الاسلامى فى نفوسهم الطريقة المثلى التى سار عليها موسى بن نصير منذ مطالع عهده بالمغرب ، وهى تعيين الفقهاء المدن التى يفتحها ، يعلمون الناس هنـــاك القرآن وقواعد الاسلام . ومن أهم الخطوات التى اتخذها فى تلك السبيل أنه بعد أن فتح طنجة ترك بين سكانها «سبعة عشر رجلا من العرب

يعلمونهم القرآن » ، وليثبت أركان الدين الجديد فى هذا الطرف الشمالى من بلاد المغرب .

وصاحب انتشار الاسلام بين البربر سرعة تعلمهم اللغــة العربية كذلك . فقد حرص العرب منذ دخلوا فى شمال افريقيا على اقامة معاهد صغيرة ملحقة بالمساجد لتعليم أبنائهم ، يدرسون فيها القرآن والحديث والدين واللغة . ووفد نفر من البربر على تلك المعاهد لتلقى العلم فيها . واتضحت أهمية هذه الخطوة الهامة منذ اسس العرب القيروان ، فكان « أول ما أنشأوا الدور والمساجد ، ثم التفتوا الى تعليم صبيانهم ، فاتخذوا لهم محلا ــ كتابا ــ بسيط البناء يجتمعون فيه لقراءة كتاب الله العزيز » . وكان انشاء هــذه الكتاتيب منذ زمن مبكر فى بلاد المغرب سببا فى سرعة انتشار اللغة العربية بين سكانها الأصليين ، وبخاصة بفضل ما تحلى به العاملون فيها من خلق رفيع واخلاص فى العمل . فترك أولئك المدرسون اثرا طيبا فى نفوس أبناء البربر ، الذين ظلوا يرددون المآثر الجليلة التى شاهدوها فى أولئك المدرسين . فقال أحد رجال البربر : « كان سفيان بن وهب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان ، فيسلم علينا فى الكتاب ، وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه » .

وأسهمت هذه المعاهد التعليمية فى انتشار اللغة العربية سريعا بين البربر ، الذين استجابوا لتلك اللغة ، ووجدوا فيها سبيلا يجمع كلمتهم . ذلك أن أهل المغرب كانوا فى حاجة الى لغة يتفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يريدون التعبير عنه . ولما كانت اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم ، فان شدة ايمانهم بالاســــلام ، ورغبتهم الشديدة فى قراءة الكتاب الكريم دفعتهم على الاقبال الى تعلمها واجادتها . ووجد البربر فى العرب الذين أقاموا بين ظهرانيهم نماذج رفيعة فى أداء اللغة العربية السليمة والنطق بها . اذ أجاد

العرب الخطابة والتعبير ، وتركوا للبربر صورا ناصعة يمكن محاكاتها وتقليدها فى ميدان اللغة .

وكانت النتيجة الهامة لهذه السياسة اختفاء العنصر اليونانى والرومانى من بلاد المغرب ، حتى اختفت آثارهم من البلاد ، ولم تبق الا آثار قليلة من مظاهر الحضارة القديمة فى الجريد ونواح ساحلية أخرى . ولم تلبث هذه المظاهر الباهتة أن اختفت بدورها تبعا لاختفـــاء اللغات اليونانية والفينيقية واللاتينية ، التى كان يستعملها الروم ومن تأثر بهم من السكان . وأثبتت ادارة موسى ابن نصير قدرتها على دفع بلاد المغرب الى التطور العظيم الذى مازال يكلل حياة سكانها الى اليوم . فلم تعد تلك البــلاد شريطا ساحليا يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين ، وفيما وراءهم فى داخل البلاد سكان بعيدون عن الأخــذ بأسباب الرقى ، وانما أصبحت بلاد المغرب وحدة متماسكة ، تشرف عليها ادارة مثالية ، ويسكنها شعب مسلم قوى تنتشر بين أفراده روابط المودة والألفة .

وبذلك اكتملت للمغرب جميع الأسباب ليصبح قطرا عربيــا اسلاميا ، بدأ يأخذ طريقه الى جانب البــــلاد العربية فى المشرق ، ليمثل دوره المجيد فى تاريخ الاسلام والحضارة العالمية .

وظهرت ثمار هذا التطور الهام فى بلاد المغــرب مبكرة ، وعلى عهد موسى بن نصير عندما خلق من أبنائها جندا يتسابقون فى رفع راية الاسلام ونشر ألويته بالحماسة التى قام بها العربى الأول الذى خرج من موطنه بشبه الجزيرة العربية على عهد الخلفاء الراشدين .

ذلك أنه أتاح للتطور الطبيعى لعلاقة العــرب بالبربر نتيجــة لم تشاهدها بقعة أخرى من البقاع التى امتدت اليهـــا الفتوح العربية ، حين عهد بالقيــادة العليا للجيش المرابط فى طنجــة الى رجل من البربر المسلمين ، وهو طارق بن زياد ، وخوله سـلطات حربية مطلقة ، وسياسية وادارية كذلك . والأمر الجدير بالاهتمام

هنا ، هو أن القيادة العليا التى مارسها طارق بن زياد لم تقتصر على جند من البربر ، وانما عمل تحت امرته جند من العرب ، وهو سبق انفرد به موسى بن نصير ، وكشف لمواطنيه والبربر على السواء أن مفهوما جديدا للقومية العربية بدأ يأخذ طريقه للوجود . فلم يعد العربى هو كل من خرج من جزيرة العـــرب ، فان كل من يتكلم بالعربية ، ويعمل من أجل أهدافها فهو عربى ، وأن الأمة العربية الفتية لا تفرق ـ على هذا التعريف ـ بين قائد وآخر ، فالكل أبناء بررة لها سواء أكان من قادة الفتوح الأولى أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، أم كان من القادة المتأخرين أمثال موسى بن نصير وطارق بن زياد ؛ وهذا الأخير هو عنوان العروبة بمفهومها المبكر الجديد .

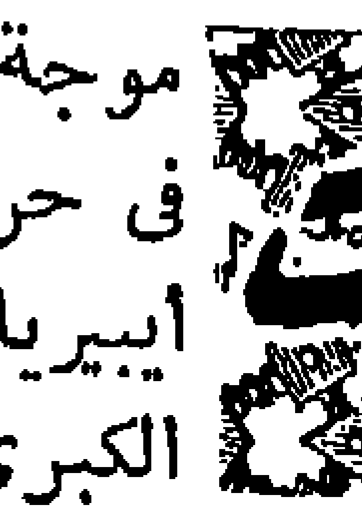
ويعتبر ظهور طارق بن زياد على مسرح التاريخ العـــربى الاسلامى أجل تقدير لرسالة موسى بن نصير فى بلاد المغرب ، وخير شاهد على ما تحلى به هذا القائد الفذ من عبقرية واخلاص فى أداء واجبه . اذ نقل راية الجهاد من أيد عربية أمينة الى أيد عربيـة أخرى فتية ، فى روح من المحبة والمودة والتعاون المثالى . وكان من حسن طالع الاسلام أن تتم هذه الخطوة الرائعة فى هذه المرحلة من انتشار الدين الحنيف . اذ صار الاسلام بعد فتح شمال افريقيا يطل على أرض جديدة هى أوربا ، التى سكنتها عناصر لم يسبق للعرب الذين خرجوا من شبه الجزيرة معرفتها أو خبرة أحوالها .

ولذا كانوا فى هذه المرحلة الثانية من فتوحهم فى شمال افريقيا فى حاجة الى قيادات جديدة شابة ومؤمنة برسالة الاسلام وأهدافه السامية .

وكان اظهار موسى بن نصير لشخصية طارق بن زياد سبيلا أتاح للعرب والاسلام بناء طبقة جديدة من القادة القادرين على مواجهة الامتداد الجغرافى الشاسع فى غرب أوربا ، والسيطرة على تلك البلاد فى سهولة ويسر .

الفصل السادس

نافذة على الأندلس



موجة الفتح الاسلامى بعد استيلائها على بلاد المغرب فى حركة أخرى قوامها الانتقال الى شبه جزيرة أيبيريا . وكان هذا الامتداد الجديد لموجة الفتوح الكبرى أمرا طبيعيا اقتضته العوامل الجغرافية والسياسية فى ذلك الوقت . فقد تطلع موسى بن نصير بعد استقرار الادارة العربية فى شمال افريقيا الى اسبانيا . اذ عرف هذا القائد الخبير أن القطر الافريقى الجديد الذى آل الى المسلمين يكون مع اسبانيا وحدة جغرافية متماسكة الأطراف ، وأن الأوضاع الطبيعية والملابسات التاريخية تحتم على القوة التى تبغى لنفسها السلامة والطمأنينة فى شمال افريقيا ألا تغض الطرف عن اسبانيا .

ودعمت الأحداث على مر العصور هذه الآراء التى وصل اليها موسى بن نصير ، وشجعته على أن يبادر بتتبع الأحداث فى اسبانيا تمهيدا لفتح أرجائها . فقد أجمع الجغرافيون على أن جبال البرانس هى الحد الفاصل بين بلاد المغرب وأوربا ، قاصدين بذلك أن شبه جزيرة أيبيريا انما هى امتداد لشمال افريقيا وليست رقعة من أوربا . وبنى الجغرافيون أقوالهم على حقائق واضحة : منها أن جبال البرانس تمتد بين أسبانيا وفرنسا ، من ساحل البحر المتوسط الى المحيط الأطلنطى ، بحيث تشغل مساحة كبيرة طولها ١٤٥ كيلو مترا ، ويصل ارتفاع بعض قممها الى حوالى ٣٤٠٠ متر .

فصار هذا الامتداد الجبلى سدا يحول بين اسبانيا وفرنسا ، ثم ان الممرات به قليلة وتكوينها صعب ، حيث تتألف من تقابل بعض الوديان التى تنحدر من أعالى الجبال نحو الشمال والجنوب ، فلا تسهل بالتالى عملية الانتقال فيها . وعرفت تلك الممرات فى القسم الأوسط باسم الأبواب ، وقد أطلق على كل منها بالفرنسية اسم « بورت » ، اى باب ، ومنها اشتق العرب فيما بعد اسم « جبال ألبرت » للدلالة على جبال البرانس .

ونتيجة لهذا الحاجز الجغرافى المانع صارت شبه جزيرة أيبيريا تقبل بوجهها على بلاد المغرب ، وتولى ظهرها الى أوربا ، وتتشابه مع هذا القطر الافريقى فى كثير من المعالم النباتية والحيوانية . فالبيئة فى منطقة طنجة وسبته تتفق مظاهرها مع الجزيرة الخضراء ومنطقة جبل طارق باسبانيا ، حتى أن المسافر عبر تلك الجهات لا يلمس فارقا يجعله يشعر أنه قد انتقل من بيئة افريقية الى بيئة أوربية . ثم ان المسافة التى يجتازها هذا المسافر لا تتجاوز خمسة عشر كيلو مترا فى بعض نواحيها ، مما يجعل الاتصال بينهما سهلا ميسورا . وأكدت الأحداث السياسية صدق هذه المعالم الجغرافية ، فما من قوة سياسية يعلو نجمها فى بقعة ما من بلاد المغرب أو شبه جزيرة أيبيريا الا وبسطت نفوذها وسلطانها على الطرف الآخر . وبذلك صارت أنظار المسلمين تتجه صوب شبه جزيرة أيبيريا منذ احتلوا طنجة وغيرها من الجهات الافريقية ، التى بدت أمامهم جزءا متمما لشمال افريقيا .

وكان موسى بن نصير — بعد أن تم له فتح المغرب — وأحس بأهمية الأندلس ، يعد من القيروان الخطط لنشر الاسلام فى هذه البقعة من أرض أوربا ، ويجمع الأخبار عنها ، ويستفسر عن أحوالها . وصارت مدينة طنجة مركز عمليات موسى بن نصير فى تلك المرحلة الاستطلاعية بسبب قربها من اسبانيا ، ولموقعها المباشر على بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) المؤدى الى تلك البلاد

الأوربية . وأقام فى طنجة منذ تم فتحها أشهر قادة البربر المسلمين وهو طارق بن زياد ، الذى صار الساعد الأيمن لموسى بن نصير فى اعداد خطة فتح اسبانيا ، وفى سائر العمليات الحربية الكبرى التى تطلبتها تنفيذ تلك الخطة .

وساعد طارقا فى تلك المرحلة عاملان ، أولهما : أنه من البربر ، السكان الأصليين لافريقية ، والخبيرين بأحوال اسبانيا وما حفلت به من خيرات وثروات . وثانيهما أنه من طلائع الجناح الأيسر للاسلام ، وثمرة من ثمار القوة الجديدة للدولة العربية الاسلامية . فهو من قبيلة نفزاوة ، ومن أسرة اشتهرت بسبقها الى اعتناق الاسلام . اذ أسلم والد طارق أيام عقبة بن نافع الفهرى ، والتحق هو بعد وفاة والده بخدمة المسلمين ، وكان اذ ذاك صغير السن ، ولكنه تمتع بقدر كبير من الحماسة والغيرة على الدين الاسلامى ، الأمر الذى جعله من أشد المقربين الى موسى بن نصير ، ومن الطبقة الأولى من رجال البربر الذين اختصهم بسره وثقته المطلقة ، واشركه مشاركة عملية فى رفع راية الاسلام .

واثبت طارق انه عند حسن ظن موسى بن نصير ، وخير أمين على تنفيذ خططه التى بدأ يعدها لفتح أسبانيا . ذلك أن موسى بن نصير « كما سبق ذكره » ، بعد أن فتح طنجة ، اتجه الى مدينة سبتة ، التى حكمها اذ ذاك رجل من الروم يدعى يوليان . ولكن هذه المدينة استعصت عليه ، فآثر أرجاء الاستيلاء عليها ، وكلف طارق ابن زياد الذى عينه على طنجة مهمة الاتصال بهذا الحاكم ، وجعل سبته نافذة يطل منها المسلمون على أسبانيا ودراسة أحوالها . وكشف موسى بن نصير بذلك عن مقدرة سياسة فائقة حين آثر العمل فى هذه المرحلة بطريق غير مباشر ، وتقديم طارق بن زياد للقيام بالعمل فى هذه الجبهة . ذلك أن طارقا كان أجدر على الاتصال بالبربر التابعين لحاكم سبته ، وكلهم ممن خبروا أسبانيا وتنقلوا بين ارجائها .

ولم تلبث تطورات الأوضاع فى سبتة أن هيأت لطارق بن زياد السير قدما فى سبيل تنفيــذ خطط موسى بن نصير . فقد رأى يوليان ، حاكم سبتة ، أن الحكمة تفرض عليه التقرب من القـــوة الاسلامية الجديدة التى صارت تجاور أملاكه مباشرة ، وأن يقيم معها علاقات ودية تعوضه عن الضعف الذى دب الى سلطانه فى سبتة . وكان يوليان أصلا عاملا من عمال دولة الروم ، وحكم اقليم مرطانية الطنجية بحكم كونه قائدا عاما ، مفوضا من قبل الامبراطور . وتولى يوليان ادارة هذا الاقليم وهو فى سن صغير ، ثم طال به الزمن دون أن تتمكن دولة الروم من عزله أو استبدال غيره به ، بسبب انشغالها بالحروب ضد العرب المسلمين الفاتحين فى شمال افريقيا .

وأصبح يوليان مطلق التصرف فى ولايته ، وله صـــلات ودية كثيرة مع أهلها من البربر وزعماء القبائل المجاورة له ، حتى صار خبيرا بتقاليدهم وعاداتهم . وأجاد القيام بها الى درجة جعلته يبدو كأحد أبناء البلاد الأصليين ، لا تابعا لامبراطورية الروم ، ولا يمكن كشف حقيقة لونه السياسى فى سهولة ويسر . فاختلط على كثير من المؤرخين أمر يوليان حتى ذكر البعض أنه من البربر ، على حين قال البعض الآخر انه من رجال القوط دون أن يفطنوا الى تبعيته أصلا لامبراطورية الروم .

ولما انهار سلطان الروم فى « افريقية » بعد الفتوح العربية ، أخذ يوليان يعمل على تقوية روابطه بدولة القوط فى أسبانيا ، على نحو ما فعل مع جيرانه من البربر ليدعم مركزه ويحفظ أملاكه . ورحب ملك القوط اذ ذاك ، واسمه « غيطشـــة » بولاء يوليان ، بسبب أهمية سبتة لحماية دولته . فهى تتمتع بموقع جغرافى فريد يجعلها مفتاح أسبانيا ، والحارس الذى يحميها من هجوم قد يشن عليها من الجانب الافريقى . فهى تقع قبالة الجزيرة الخضراء من أرض أسبانيا ، وتسيطر على المياه التى بينها وبين تلك الرقعـــة الأسبانية . هذا وتتمتع سبتة بموقع طبيعى تجعلها حصنا منيعا

فى استطاعته أن يقاوم زمنا طويلا أى هجوم مفاجىء قد تتعرض له. فيوجد على بعد ميلين منهـا جبـل موسى (نسبة الى موسى بن نصير) ، كما يحيط ماء البحر بها من ثلاث جهات مما زاد فى مناعتها وقوتها ، هذا الى أنه قام على مقربة منها دار لصناعة السفن ، التى استخدمت فى العبور الى الأندلس .

ورأى يوليان على الرغم من دعم صلاته بدولة القوط فى أسبانيا أن تطور الأوضاع فى بلاد المغرب ، واستقرار الفتوح الاسـلامية بها ، يفرض عليه حسن الجوار مع الادارة العربية الجديدة ، وتجنب الاصطدام بها . ولذا رحب يوليان بسياسة موسى بن نصير ، الذى آثر عدم الاستمرار فى الاستيلاء على سبتة . وكان موسى قد ترك لقائده طارق بن زياد فى طنجة مهمة تنظيم علاقات الجوار مع حاكم هذه المدينة الهامة ، الذى هو مفتاح بلاد الأندلس . ونجح طارق فى دعم صداقته ليوليان ، وبدأ يطل من هذه المدينة على أسبانيا ، ويدرس أحوالها دون أن يثير مخاوف القوط ، أو يبعث الريبة فى نفوسهم باستعدادات المسلمين الحربية .

وسارت الأمور بعد ذلك فى سبتة بما ساعد موسى بن نصير على أن يكمل دراسته الخاصة بفتح أسبانيا ، ويعرف المزيد من الأخبار التى تهيىء للمسلمين القيام بفتوحهم فى هـذا الميدان الجديد . وسبب ذلك أن دولة القوط بأسبانيا تعرضت لا ضطرابات شديدة تردد صداها فى مدينة سبتة ، ودفعت بحاكمها يوليان الى الانتقال من سياسة حسن جواره للمسلمين الى سياسة التحالف والاتفاق على تحقيق المصالح المشتركة بينهما . ذلك أن أحـد كبار رجال القوط ، واسمه رودريك ، وهو الذى عرفـه العرب باسم لوذريق ، استطاع أن يطيح بالملك الحـاكم ، وهو غيطشة ، ثم اعتلى العرش .

ولم يكتف لوذريق بذلك ، وانما أخذ يعمل على انزال أشـد الوان الأذى بأبناء غيطشة ، وسائر آل بيته . وآتت هذه السياسة

الخرقاء من جانب لوذريق ثمرة لم يكن يتوقعها على الاطلاق ، ذلك أن أبناء غيطشة حين اشتدت بهم المتاعب ، وصـــدت فى وجوههم السبل ، أخذوا يلجئون الى جهة أخرى يستمدون منها العــون والمساعدة على استرداد حقهم المسلوب . وكان موسى بن نصير قد بدأ يتطلع الى أسبانيا عن طريق نافذة سبتة . ولم تلبث الأحداث أن جعلت سبتة تقوم بدور مباشر فى نقل صورة كاملة عن تلك الأحوال السائدة فى أسبانيا الى موسى بن نصير ، فضلا عن قيامها بدور الوساطة بين أبناء غيطشة وموسى بن نصير .

ووجد أبناء غيطشة من يوليان حاكم سبتة رســـولا الى موسى بن نصير ، وساعدا ومعاضدا لمشاريعهم بسبب سوء العلاقات التى وقعت اذ ذاك بين هذا الحاكم وبين لوذريق . وتذكر المراجع أن سبب سوء العلاقات يرجع الى اعتداء لوذريق على شرف ابنة يوليان ، التى كانت تتعلم فى طليطلة . وكانت العادة قد جرت على أن يبعث كبار رجال الدولة من القوط بأبنائهم الى طليطلة ليتأدبوا بآداب البيت المالك ، وليكون ذلك سبيلا لتأليف القلوب .

وأسهبت المراجع فى قصة ابنة يوليان ، فوصفتها بأنها «بارعة الجمال . فلما صارت عند لوذريق وقعت عينه عليها فأعجبته ، وأحبها حبا شديدا ، ولم يملك نفسه حتى أكرهها ، فاحتالت حتى أعلمت والدها بذلك سرا بمكاتبة خفية . فأحفظه شأنها جــدا ، واشتدت حميتـــه (غضبه) ، وقال : ودين المسيح لأزيلن ملــكه وسلطانه ، ولأحفرن تحت قدميه » .

ورأى يوليان أن يحتال أولا لاستدعاء ابنته من بلاط لوذريق . فخرج بنفسه فى يوم من أيام الشتاء البارد ، دون أن يأبه بمخاطر الطريق . وعندما وصل الى طليطلة أوجس منه لوذريق خيفـــة بسبب خضوره فى هذا الوقت غير الملائم ، و « سأله عما لديه وما جاء فيه ، ولم جاء فى مثل وقتـــه ؟ » . فأجاب يوليان بأن سبب حضوره هو أن زوجته مريضة مرض الموت ، وأنها فى « شدة شوقها

لرؤية بنتها التى هى عنده ، وتمنيها لقاءها قبل الموت ، والحاحها عليه فى احضارها ، وأنه أحب اسعافها ، ورجا بلوغ أمنيتها منه ». وانخدع لوذريق بهذه الحجة ، وسمح لابنة يوليان بالعودة مع أبيها ، بعد أن استوثق منها بألا تطلعه على ما حدث بينهما .

وأضافت المراجع محادثة طريفة جرت بين يوليان — فى مقابلة الوداع — مع لوذريق ، تبين تهكم يوليان ، وما انطوت عليه نفسه من حقد على هذا الملك الفاسد . اذ قال لوذريق مخاطبا يوليان : اذا قدمت علينا فى المرة التالية فأرجو أن تحضر معك بعض الصقور ، لأنى أحب هذا النوع من الطيور الجارحة للهو والمتعة . فقال له يوليان : « أيها الملك ، وحق المسيح لئن بقيت ، لأدخلن عليك شذانقات (أى صقور) مادخل عليك مثلها قط » . وكانت هذه الاجابة تكشف فى صورة مقنعة عما اضمره يوليان فى نفسه من كراهية للوذريق ، وتبين أن نيته قد انعقدت اذ ذاك على الاتصال بالعرب الذين تم لهم فتح المغرب ، وأنه كان يعنيهم حين قال للملك : سأدخل عليك صقورا ما دخل عليك مثلها قط .

وبعد أن استقر يوليان ومعه ابنته فى سبته بدأ يكشف عن نواياه صراحة ، وأخذ يساعد أبناء غيطشة والعناصر المناوئة للوذريق فى اسبانيا . فأعد يوليان حملة نزلت اسبانيا ، واشتركت مع الثوار فى أعمالهم الحربية . لكن قوات لوذريق استطاعت الحصول على النصر ودحرت حملة يوليان ، واضطرتها للعودة الى سبته . وما أن انتهت هذه الحروب فى اسبانيا عن فوز لوذريق حتى أيقن يوليان انه لم يعد أمامه مفر من الاتجاه نحو السلطات العربية فى القيروان، وطلب مساعدتها ضد لوذريق .

وبذلك عجلت الأحداث فى اسبانيا بتحويل مدينة سبته الى نافذة يطل منها موسى بن نصير على التطورات الخطيرة التى وقعت فى هذه الرقعة من غرب أوربا ، ويعرف عن طريقها فى ذلك الوقت أمثل السبل لنشر الاسلام فى تلك الأرجاء ، وضمها الى الدولة

العربية الاسلامية . وكان قيام طارق بن زياد بدور الوساطة بين يوليان حاكم سبته ، وبين موسى بن نصير خطوة بارعة فى ابعاد القيروان عن مثار الريب والشكوك ، وفى احكام خطط المسلمين للنهوض بالفتوح المقبلة فى اسبانيا فى سرية تامة . ذلك أن بلاد اسبانيا سادتها فى تلك الفترة شائعات عن قوة البربر ، كما بدأت تنتشر فيها الأساطير التى تجذب انتباه سكانها الى خطر التعاون الذى جمع بين العرب والبربر فى ظل العهد الجديد .

ومن الأساطير التى ترددت عن خوف أهل اسبانيا من البربر قصة ابنة حاكم مدينة قادس . وكانت هذه الفتاة فى غاية الجمال ، وتسامع بها ملوك الأندلس ، وكانت الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة أو بلدتين ملك ، وهذا ما يوضح مدى التفكك الادارى الذى ساد البلاد اذ ذاك ، اذ المقصود بالملك حاكم المدينة . وتقدم أولئك الملوك، أو الحكام الى زميلهم حاكم قادس يخطبون ابنته . وخشى الوالد ان زوجها من واحد أسخط الباقين ، واستبدت به الحيرة واستولى عليه القلق .

وعندئذ استدعى حاكم قادس ابنته ، وعرض عليها الموقف ، وكانت مشهورة الى جمالها الفائق بالحكمة والعقل السليم . وقال لها والدها :

يا بنية ، انى أصبحت فى حيرة من أمرك ، ممن يخطبك من الملوك ، فان أرضيت واحدا أسخطت الباقين .

فقالت الفتاة لأبيها : أجعل الأمر الى ، تخلص من حيرتك .

فقال الأب : وما تقترحين ؟

قالت : أعلن فى البلاد أنى على استعداد للزواج من الشخص الذى يتصف بالحكمة .

فقال الوالد : نعم ما اخترته لنفسك .

وأرسل الوالد رده على سـائر الحكام الذين بعثوا يطلبون يد ابنته قائلا لهم : « انها اختارت من الأزواج الملك الحكيم » . ولما تسلم الحكام هذا الرد أحجم كلهم عدا اثنين ، كتب كل واحد منهما الى والد الفتاة يخبره بأنه الملك الحكيم . وعاد الوالد وعرض الأمر على ابنته قائلا :

يا بنيـة ، بقى الأمر على اشكاله ، اذ جاءنى رد من ملـكين حكيمين ، أيهما أرضيت أسخطت الآخر » . فقالت سأقترح على كل واحد منهما القيام بعمل ، وأيهما سبق الى الفراغ من هـذا العمل قبلت زواجه .

وأعجب الوالد برباطة جأش ابنته وحكمتهـا ، وقال لهـا : وما الذى تقترحين عليهما ؟

فقالت : أنا ساكنون فى بلد يحتاج الى حراسة دائمة وحماية مستمرة من جانب البربر الذين يقيمون على مقربة من ديارنا عبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) فى مدينة سبته . وانى سأقترح على الأول ، الراغب فى زواجى أن يبنى لى طاحونا فى بلدتى تدار بماء يجلب من شاطىء بلاد البربر . وسأطلب الى الثانى أن يشيد لى نوعا من أعمال السحرة (طلسما) نحصن به جزيرة الأندلس من البربر . ووافق أبوها على هذا القول السديد ، وكتب الى الملكين بما قالت ابنته . فبعث كل منهما بما يفيد استعداده للقيام بما طلبت فتاتهم الجميلة .

وبدأ الملك الذى اختار الطاحون فى تنفيذ مهمته ، واستطاع بحكمته أن يصل عبر بحر الزقاق مابين جزيرة الأندلس وبر البربر ، وتمكن بذلك أن يجرى الماء من هناك عن طريق ساقية كبيرة ، تدفع الماء ، فتدير الطاحون بأرض قادس .

واما الملك الذى اختار عمل الطلسم ، فانه تأخر بعض الوقت بسبب اختيار الطالع المناسب للبدء فى العمل . ثم استطاع اقامة

بناء مربع الشكل ، أشبه بالقاعدة المتينة ، جعل عليه تمثالا من النحاس الأحمر والحديد ، على صورة رجل من البربر « له لحية ، وفى رأسه ذؤابة من شعر جعد ، قد جمع طرفيه على يده اليسرى ، وفى رجله نعل ، وهو شاهق فى الهواء ، طوله ينيف على سبعين ذراعا ، وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابض عليه ، مشيرا الى البحر كأنه يقول : لا عبور . وبلغ من تأثير هذا الطلسم أنه اذا اقتربت منه سفينة من سفن البربر ، سقط المفتاح من يد التمثال ، فيتنبه اهل البلاد الى الخطر قبل أن يدهمهم .

وتستطرد الأسطورة ، فتروى أن صاحب الطاحون انتهى من عمله قبل أن يفرغ صاحب الطلسم . ولكن والد الفتاة أخفى على صاحب الطلسم هذا الخبر ، حتى لا يستولى عليه اليأس لعدم فوزه بالفتاة ، ويترك البناء ، فيبطل عمل الطلسم . ولكن صاحب الطاسم بعد أن انتهى من عمله علم بفوز صاحب الطاحون ، لأنه انتهى من مهمته أولا ، « فضعفت نفسه ، وسقط من أعلى البناء ميتا » . وحصل صاحب الطاحون على الفتاة والطلسم ، الذى وقف يحمى بلاد الأندلس من البربر .

وسرت الى جانب تلك الأسطورة قصة اخرى توضح احساس القوط الحاكمين فى الأندلس باقتراب نهاية ملكهم على يد العرب . وتروى هذه القصة أنه حكم الأندلس من ملوك القوط سبعة وعشرون ملكا ، كان آخرهم لوذريق ، الذى اتخذ مقره فى طليطلة العاصمة . ولما جلس على العرش ، وبدأ يدرس أحوال دولته ، رأى فى طليطلة بيتا عليه ستة وعشرون قفلا . فقال لوزرائه : أريد أن أفتح هذا البيت لأرى مافيه ، لأنه لم يبن عبثا . وكان لوذريق يظن أن به كنوزا ومالا وفيرا . ولكن الوزراء قالوا له : أيها الملك ، صدقت ، ان هذا البيت لم يصنع عبثا ، ولم يقفل سدى . والرأى والمصلحة تقضى بأن تقلد من سبقك من الملوك فلا تفتحه ، وتضيف اليه قفلا على نحو ما فعل كل واحد منهم اثر توليه العرش .

ولكن لوذريق كان شديد العناد ، فقال لهم : ان نفسى تنازعنى الى فتحه ، ولابد لى من القيام بذلك . فألح عليـــه الوزراء مرة أخرى الا يفعل ، وقالوا له : ان كنت تظن أن فيــه مالا ، فقدره ، ونحن نجمع لك من أموالنا مثل ذلك المقدار ، ولا تفتح البيت ، فيقع حادث لا تعرف عاقبته علينا وعلى البلاد . وأصم لوذريق أذنيه ، وأمر بفتح الأقفال وكان عددها ستة وعشرين قفلا ، لأنه لم يضع القفل الخاص به السابع والعشرين . فلما فتح البيت لم ير لوذريق فى داخله شيئا غير مائدة عظيمة من ذهب وفضة ، مكللة بالجواهر ، ومكتوب عليها : « هذه مائدة سليمان بن داوود عليهما السلام » ، وبجوارها تابوت عليه قفل ، ومعلق معه مفتاح . فأمر لوذريق بفتح التابوت ، فوجده فارغا ، ولكن فى جوانب التابوت « صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصـــوير على أشكال العرب ، وعليهم الفراء ، وهم معممون ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وهم متقلدون السيوف المحلاة » ، وفوق تلك الصور أسطر مكتوبة بلغة قديمة ، فقرئت « فاذا فيها : اذا كسرت أقفال هذا البيت ، وفتح التابوت ، فظهر مافيه من هذه الصور ، فان هـــذه الأمة المصورة تدخل الأندلس ، فتغلب عليها وتملكها » .

وسيطر الوجوم على لوذريق ومن حوله من الوزراء ، وأمر برد الأقفال الى ماكانت اليه ، وبدأ يعمل على تحصين البلاد . ومما لا شك فيه أن هذه القصة لها مغزاها اذ أن العرب وقد أتموا فتح بلاد المغرب فى الوقت الذى جلس فيه لوذريق على العرش ، بدءوا يتطلعون الى نشر الاســلام فى الأندلس . ولذا كان من الحكمة أن يترك موسى بن نصير لقائده طارق بن زياد مهمة الاتصال بيوليان فى سبته ، حتى يخفى تماما أهدافه عن السلطات الحـــاكمة فى اسبانيا . وأجاد طارق أداء المهمة التى اضطلع بها ، حتى أن يوليان حين بعث الى طارق يطلب منه مساعدة العرب له ضد لوذريق لم يكن يعرف أهداف السلطات العربية فى القيروان ، واعتقد أن الأمر سوف يقتصر على طلب المساعدة منها ، مقابل تقديم بعض الكنوز

والأموال ، ثم تعود بعدها القوات العربيـــة الى قواعدها فى بلاد المغرب .

ونقل طارق بن زياد أخبار المفاوضات التى دارت بينه وبين يوليان الى موسى بن نصير ، الذى وجد أن الوقت قد حان لفتح الأندلس . ثم تحقق موسى من صدق مانقله اليه طارق حين ذهب يوليان بنفسه الى القيروان ، ليعرض وجهــة نظره على السلطات العربية العليا هناك . اذ أكد يوليان لموسى بن نصير الخير الوافر الذى سيعود على العرب من القيام بغزو الأندلس ، ومساعدتهم له ضد لوذريق . فوصف له حسنها وفضلها وما جمعت من أشتات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار ، وغزارة المياه ، وعذوبتها ، وهون عليــه مع ذلك حال رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء (أى الكفاية) .

وبهذا حصل موسى بن نصير على تقرير شامل واف عن بلاد الأندلس ، من خبير عليم بأحوالها ، ووجد أن كل الظروف قـــد أصبحت سانحة للانتقال الى ميدان جديد حافل بالمجد والفخار . وبدأت الاستعدادات تأخذ طابع الجد ، ولكن فى سرية تامة أثبتت مرة أخرى أن موسى بن نصير رجل الساعة الجرىء ، وكشف فى الوقت نفسه عما تحلى به من صفات قيادية . وهيأ له التاريخ بذلك صفحة مشرفة ، خلد فيها سبقه الى نشر الاسلام فى أوربا ، وتمهيد التربة هناك لغرس بذور الحضارة العربية ، التى اخرجت أهل أوربا من ظلمات العصور الوسطى وشيدت لهم أصول نهضتهم التى ينعمون بها حتى الوقت الحاضر .

الفصل السّابع

القيادة الجماعيّة



فتح الأندلس نموذجا رائعا من أعمال القيادة الجماعية تجلى فيه روعة التنسيق بين الخطط ، ودقة التنفيذ فى العمل ، وقوة الارتباط بين الأطراف المشتركة فى هذا الفتح ، على الرغم من بعد الشقة بينها . وكان موسى بن نصير هو العمود الفقرى للقيادة الجماعية وحلقة الاتصال بين أعضائها فى هذه المرحلة الهامة من مراحل انتقال الجيوش الاسلامية الى غرب أوربا ، ونشر راية الاسلام بين بقاعها .

وكان أول شىء قام به موسى بن نصير فى سبيل تنفيذ دوره فى القيادة الجماعية هو ترحيبه بيوليان حين وفد الى القيروان ، وأعلن موافقته على مساعدته ضد لوذريق . واستطاع بذلك أن يستفيد من الموقف السياسى الذى ساد حكام الأندلس وأن يسخره لخدمة الجيوش الاسلامية الغازية .

وأخذ موسى بن نصير بعد ذلك يعد العمليات الحربية فى اسبانيا وفق النهج الذى سارت عليه الفتوح الاسلامية فى غيرها من الجهات . ذلك أن بعض المؤرخين توهم أن قلة الجند الاسلامى الذى اشترك فى الحملة الأولى على بلاد الأندلس يدل على أن الهدف من الفتح هو الحصول على المغانم . ولكن غاب عن هذا النفر من المؤرخين أن خطط موسى بن نصير كانت قد درست بعناية فائقة ،

وأن السلطات المركزية فى دمشق أحيطت علما بها ، كما شاركت فى اعدادها ، والموافقة عليها ، وهذا مما ينهض دليلا على قوة القيادة الجماعية الاسلامية ، ودحض الافتراء القائل بأن الفتح كان ارتجاليا، وكان القصد منه الحصول على الأسلاب والمغانم .

وتجلت قوة الربط بين أعضاء القيادة الجماعية التى تولت فتح الأندلس ، حين كتب موسى بن نصير الى الخليفة الوليد بن عبدالملك يستأذنه فى فتح تلك البلاد ، ويشرح له اضطراب أحوالها ، وأن الفرصة غدت مواتية بعد مؤامرة يوليان ضد لوذريق . غير أن الخليفة أمر موسى بأن يختبر الأندلس ، ويدرس أحوالها بنفسه بارسال حملات استطلاعية اليها . ولما كرر موسى بن نصير على الخليفة الاذن له بغزو اسبانيا ، وأكد له مرة أخرى أن تلك البلاد قريبة من ممتلكات المسلمين فى طنجة ، حتى أن المرء يشاهد مناظرها بنفسه فى سهولة ، ولما كرر عليه ذلك أصر الخليفة على ضرورة ارسال الحملات الاستطلاعية أولا ، قائلا لموسى : « وان كان ! فاختبره (أى الأندلس) بالسرايا » .

وكشفت المراسلات السالفة التى دارت بين موسى بن نصير والخليفة الوليد بن عبد الملك عن أن السلطات الاسلامية قد أعدت عدتها لفتح اسبانيا ، وان الخلافة وافقت على هذا الفتح ، وأن الأمر لم يكن مغامرة حربية من جانب المسلمين للحصول على المغانم . فالحملات التى تستهدف هذا النوع من الأغراض المادية لا تتطلب استئذان السلطات العليا والحصول على موافقتها . هذا الى أن موسى بن نصير جعل الخلافة نفسها متضامنة معه فى مسئولية فتح الأندلس ، وليحصل على مساعدتها ، على نحو ماسبق أن حدث فى الحملات الاسلامية لفتح بلاد المغرب . اذ كانت السلطات المركزية فى دمشق تقف وراء جهود قادة المسلمين وتزودهم بالامدادات والعدة والعتاد كلما تطلب الموقف ذلك .

وكانت الخلافة فى دمشق حريصة على الا يصيب المسلمين

كارثة ما ، أو ينزل بهم خسران فادح فى بلاد اسبانيا ، لأنها تمثل ميدانا جديدا ، به عنصر من القوط الذين علقت بأخبارهم قصة هدم الامبراطورية الرومانية فى غرب أوربا ، وعرف عنهم أيضا الميل الى العنف فى القتال وحب التخريب والتدمير واتباع المكيدة والخداع فى المعارك والحروب . غير أن موسى بن نصير قد تجمعت لديه أخبار موثوق بها عن القوط ، وما اعتراهم من ضعف ، وما ساد دولتهم من تفكك وانحلال ، ولا سيما بعد أن اجتمع بيوليان ، وعرف ما صارت اليه قوة القوط من وهن وتدهور . ولم يجد موسى بن نصير ، على الرغم مما لديه من أنباء بشئون القوط الا أن يمتثل لأمر الخليفة الوليد ، ويختبر اسبانيا بالسرايا ، أى الحملات الاستطلاعية .

وعهد موسى بن نصير الى يوليان نفسه القيام باغارة على جنوب اسبانيا ليتحقق بذلك من أمرين ، أولهما أن يوليان جاد فى دعواه ضد لوذريق ، وكراهيته له ، ولحكومته فى أسبانيا ، وثانيهما أن يعرف من المقاومة التى يتعرض لها يوليان مدى قوة القوط ، وما لديهم من استعداد حربى . وقام يوليان فعلا باغارة سريعة على جنوب اسبانيا ، ورجع منها محملا بالكثير من الغنائم والسبى .

وأراد موسى بن نصير أن يقف بعد ذلك بنفسه على أحوال اسبانيا ، فأعد حملة من المسلمين جعل على رأسها أحد قادته المشهورين بالمغامرة والشجاعة ، وهو أبو زرعة طريف . فبعث هذا القائد الى الأندلس ومعه أربعمائة من خيرة الفدائيين المسلمين ، وذلك على سفن قدمها لهم يوليان . ونزل المسلمون فى جزيرة صغيرة اسمها بالوماس ، وهى التى صارت تحمل بعد ذلك اسم القائد المسلم ، وعرفت بجزيرة طريف . وبادرت قوة مكونة من أبناء غيطشة التى اشتركت فى الحملة الى مساعدة المسلمين ، وحراسة المضيق ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٩٢ هـ / يوليو سنة ٧١١ م . وشن طريف من مركزه بتلك الجزيرة عدة حملات

استطلاعية على سواحل اسبانيا الجنوبية ، حيث درس تحصيناتها، وعرف الكثير من أحوال أهلها ومدى علاقتهم بحكامهم من القوط . وأخيرا عاد طريف الى بلاد المغرب ، فقدم تقريرا مفصلا عن اغاراته الى موسى بن نصير ، وشرح له فى اسهاب أحوال أسبانيا شرح الخبير ، الملم بالدراسة المستفيضة ، مما يدل على عمق الاستعدادات الاسلامية ، ودقة تنظيماتها .

وقد أكدت اغارة طريف لموسى بن نصير صدق الأقوال التى نقلها اليه يوليان عن انهيار الأحوال فى أسبانيا ، وافتقارها الى أسباب الدفاع ، بسبب انشغال القوط بملاذهم وانصرافهم الى أعمال الطغيان وسلب ثروات البلاد لأنفسهم . فلم يلق طريف نوعا من انواع المقاومة ، كما لم يقابل قوة من قوات القوط أثناء استطلاعه لأحوال جنوب أسبانيا . هذا الى أن مبادرة أفراد من بيت غيطشة الى مساعدته وحراستهم لخطوط مواصلات المسلمين جاء دليلا واضحا على الانقسام الذى ساد الطبقة الحاكمة من القوط ، وأن لوذريق لا يحكم الا بالعنف والقسوة ، وهو أمر لن يكفل له مقاومة المسلمين طويلا عندما يبدأ الفتح الاسلامى للبلاد . هذا الى أن يوليان برهن مرة أخرى ، بما قدمه من مساعدات لحملة طريف على أنه كاره فعلا للوذريق ، وأن المؤامرة التى دبرها مع أبناء غيطشة ضد هذا الحاكم المستبد مؤامرة لها خطرها ، وأن خيوطها صحيحة وسليمة .

وبعودة حملة طريف انتهى موسى بن نصير من دور الحملات الاستطلاعية ، وبدأ الاعداد الفعلى للفتح المنظم لأسبانيا . وأثبت موسى بن نصير مرة أخرى مقدرة حربية فائقة فى تلك السبيل ، واجادة دوره فى القيادة الجماعية اجادة كاملة . اذ دارت الاستعدادات الحربية التى قام بها دون أن يتسرب أمرها الى القوط ، ودون أن ينتبه يوليان نفسه الى حقيقة أهدافها وجوهر مراميها . فقد استطاع موسى بن نصير أن يوهم يوليان بأن

استعداداته الواسعة النطاق ، التى أعقبت حملة طريف ، ما هى الا حملة قوية لمساعدة أبناء غيطشة ضد لوذريق ، وأخفى عنه تماما أنها ستكون الحلقة الأولى فى سلسلة الفتح المنظم لأسبانيا .

وأعد موسى بن نصير حملة مكونة من خمسة آلاف جندى ، حتى لا يثير كثرة عددها ريبة يوليان أو مخاوفه . وفى الوقت نفسه سار موسى بن نصير فى ذلك الاعداد على النهج الذى سارت عليه فتوح المسلمين الكبرى فى شتى الجهات ، وهو القيام أولا بارسال حملة صغيرة العدد ، يتبعها امدادات لا تنتهى ، سواء من حيث الكثرة أو حسن الاستعداد ، حتى يتم تحقيق الأهداف الحربية . وهذا ما حدث فعلا فى فتح الشـــام ومصر وفارس وبلاد المغرب نفسها . فكانت الجيوش التى توجهت لفتح تلك البلاد صغيرة العدد ، ثم لم تلبث أن جاءتها عند الضرورة امدادات واسعة كفلت لها النصر التام . وأثبت موسى بن نصير فى ميدان فتوحه الجديدة بالأندلس أنه لا يقل جدارة وخبرة وكفاية عمن سبقه من أقرانه من قادة المسلمين المشـــهورين ، أمثال خـــالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وسعد بن أبى وقاص . اذ قاد كل منهم حملات صغيرة فى أول الأمر ، لم تلبث أن ازدادت أعدادها ، وسجلوا للمسلمين صفحات مجيدة فى تاريخهم الحربى .

وتوج موسى بن نصير دوره فى عمل القيادة الجماعية حين انتدب للحملة الاسلامية الأولى على الأندلس أحسن قادة المسلمين اذ ذاك ، وأشدهم ثقة به ، وهو طارق بن زياد . وجاء اختيار هذا القائد خطوة موفقة من موسى بن نصير ، وأكدت بعد نظره وسعة خبرته الحربية . فطارق من البربر الذين عرفوا أرض الأندلس معرفة وثيقة ، لأنهم يرونها امتدادا لبلادهم لا فارق بين بيئتهـــا وبيئة وطنهم . يضاف الى ذلك أن طارقا هو الذى تولى بنفســه جمع المعلومات عن بلاد الأندلس ، وتولى مفاوضات يوليان ، وصار خبيرا بالميدان الجديد فى سائر نواحيه الحربية والسياسية .

وعمد موسى بن نصير الى أن يشد أزر طارق الذى عهد اليه بالقيادة العليا للحملة ، اذ ضم اليه هيئة من كبار رجال الحرب ، من العرب والبربر ،ليكونوا بمثابة مجلسه الاستشارى ومساعديه فى ادارة المعارك . ومن أولئك القادة العرب : عبد الملك بن أبى عامر المغافرى ، وعلقمة اللخمى ، وأحد موالى الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه مغيث الرومى . وكان القائد الأخير يعتبر مندوب الخلافة الحربى فى تلك الحملة التى أعدها موسى بن نصير ، وحلقة الاتصال بين السلطات المركزية فى دمشق ومقر القيادة الاسلامية فى القيروان . أما قادة البربر ، الذين انتدبهم موسى بن نصير للعمل الى جانب طارق بن زياد ، فكان من بينهم « مونوسة » ، وغيره من كبار المحاربين البربر الذين اشتهروا بحماستهم فى القتال وغيرتهم على نشر الاسلام . وجاءت هذه الطائفة من قادة البربر عنوانا على نجاح موسى بن نصير فى اقرار دعائم الحكم الاسلامى فى ولايته الجديدة ببلاد المغرب ، ودلالة على أن تلك الجهات صارت القاعدة الأساسية لفتح الأندلس .

وكلف موسى بن نصير بعد ذلك يوليان أن يقدم للقوات الاسلامية السفن اللازمة لنقلها الى أسبانيا ، كما يتولى حراستها ، ويقوم بمهمة الدليل لها . وكان السبب فى اصرار موسى بن نصير على الاعتماد فى نقل الجند بسفن يوليان هو حرصه الشديد على اخفاء تحركات هذه الحملة عن العيون والجواسيس . فالأسطول الاسلامى كان قد تم اعداده على عهد موسى بن نصير ، وصارت له قاعدة هامة فى تونس ، كما ظهر نشاطه فى السيطرة على الجزر الهامة فى غرب البحر المتوسط . ولذا كانت تحركات هذا الأسطول محط أنظار الجميع ولا يمكن اخفاء أمرها . ولما كان موسى بن نصير يستهدف مفاجأة القوط بالأندلس ، لم يكن أمامه سوى الاعتماد على سفن يوليان التى لا تثير الريبة فى نفوس من يشاهدها وهى تعبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) . وكان هذا الحذر التام مطلوبا فى تلك المرحلة الأولى من فتح اسبانيا ، ولا سيما أن مهمة نقل الجنود

عبر المياه تحتاج الى دقة واحتياط شامل ، لتجنب هجوم قد يسفر عنه كارثة محققة .

وكان لدى يوليان أربع سفن لا تتسع لنقل أفراد الحمنة مرة واحدة ، ولذا تمت عملية عبور بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) على دفعات . وأخذت كل جماعة يتم نقلها تختفى فى جهات خصصت لها على الشاطىء الأسبانى حتى انتهى الجميع من العبور ، وذلك سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م واتخذت الحملة الاسلامية مركزا لهـا عند الجبل الذى حمل اسم قائدها حينئـذ ، وصـار يعرف باسم « جبل طارق » .

وبادر طارق بن زياد بتحصين القـاعدة الأولى التى استولى عليها فى جنوب اسبانيا قبل التوغل فى داخل البلاد . وروت المراجع الحديثة فى هـذا الصدد رواية خلاصتهـا أن طارق بن زياد أمر باحراق السفن التى عبر بها بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ، حتى يقطع على جنده كل أمل فى العودة الى افريقية ، ويحفزهم على الاستبسال فى القتال . ولا شك أن هذه الرواية لا يقبلها المنطق السليم ، ولا يعقل أن يقدم عليها قائد محنك مثل طارق بن زياد . فاحراق السفن يترتب عليه عزل الحملة الاسلامية ، وقطع سبل اتصـالها بافريقية ، وارتباطها بالسـلطة المركزية فى القيروان . والمعروف عن بديهيات الحروب أن يعمل القادة على المحافظة على سلامة خطوط مواصلاتهم مع مراكز الامدادات والتموين . وأثبتت مجريات الأحداث أن طارق بن زياد حرص كل الحرص على دعم وسائل اتصاله بموسى بن نصير فى القيروان ، وابلاغه خطوة خطوة تفاصيل الموقف الحربى ، وطلب منه نجدات وصلت سريعا ، وذلك بوساطة سبل الاتصال الوثيقة بين أعضاء القيادة الجماعية .

وعمد طارق بعد نجـاح حملتـه فى عبورها لبحـر الزقاق ، واتخاذها قواعد لها على شـاطىء اسبانيا ، عمـد الى دعم نقط

ارتكازه ، وذلك بتوسيع دائرتها والسيطرة على الجهات التى تكمل لها أسباب الطمأنينة والمنعة . وكان طارق بن زياد يسير فى ذلك وفق السياسة التى دأب عليها موسى بن نصير فى رسم الخطط الحربية ، والعمل على تجنب هجمات مفاجئة قد تعرض مشروعاته الحربية للفشل . فاستهدف طارق بن زياد — بتوسيع قاعدة عملياته وتحصينها — جعلها على صلة دائمة ببلاد المغرب وتأمين ظهره فيها . وأثبت هذا القائد أنه لا يقل مهارة عن أقرانه من قادة المسلمين الأول ، فى تنفيذ الرسالة التقليدية التى ساروا عليها جميعا ، وهى وضع جيوشهم فى مواقع لا تؤخذ منها على غرة ، ولا تمكن لعدو قطع مواصلاتها مع مراكز القيادة العليا . وانتدب طارق لهذا العمل أشهر قادته ، وهو عبد الملك بن أبى عامر ، ومعه فرقة من خيرة الجند . واستولت هذه الحملة على بلدة الجزيرة الخضراء قبالة جبل طارق ، وصار بحر الزقاق فى قبضة المسلمين وعلى اتصال وثيق بسبته ، قاعدة الاتصال الأولى ببلاد المغرب .

وتمت المرحلة الأولى بذلك من نزول الحملة الاسلامية فى اسبانيا دون أن تلقى مقاومة . وكان السبب فى ذلك هو دقة خطط القيادة الجماعية والتنسيق بينها . ذلك أن موسى بن نصير اختار وقت قيام حملة طارق بن زياد وفق أدق المعلومات التى وصلته ، وطبقا لكل قواعد الحروب لا الاغارات السريعة . فكانت المخابرات الاسلامية تتبع حركات لوذريق ، وتتحين الوقت المناسب لبدء الحملة . وسرعان ما سنحت الفرصة حين ذهب لوذريق الى أقصى شمال اسبانيا ليخمد ثورة قام بها سكان جبال البرانس المعروفة باسم القبائل البسقاوية . وكانت تلك الجموع القبلية مشهورة بالمراس وقوة الشكيمة ، مما جعل لوذريق يأخذ الغالبية العظمى من جيشه معه ، وصارت جهات جنوب اسبانيا خالية تماما من أسباب الدفاع عنها . ولذا لم تشعر سلطات القوط بنزول المسلمين فى جنوب البلاد الا بعد أن استقرت دعائمهم ، ومكنوا لأنفسهم على بحر الزقاق . فعبأت قوات سريعة ، وأرسلتها على عجل للهجوم

على المسلمين ، تحت قيادة « بنج » المعروف باسم « بنشو » فى المراجع الاسبانية . ولكن القوط لقوا هزيمة فادحة ، ولم ينج منهم الا واحد استطاع الهرب ، والذهاب الى معسكر لوذريق فى أقصى الشمال ، ونقل اليه أنباء تلك الكارثة ، وهجوم المسلمين على البلاد .

وكان لوذريق يقيم فى مدينة بنبلونة بأقصى الشمال ، حيث يدير الحرب ضد القبائل البسقاوية . ولذا صمم على العودة سريعا الى الجنوب ، والهجوم على المسلمين قبل أن يتوغلوا فى داخل البلاد . وكان لوذريق من أشهر رجال القوط فى ميدان الحروب . اذ قدر تماما الخطر الذى أحاط بدولته بسبب نجاح المسلمين فى اتخاذ قاعدة لهم عند جبل طارق ، وأدرك أنهم جاءوا للفتح وليس للاغارة من أجل السلب والنهب والحصول على المغانم ، كما راجت الاشاعات بذلك . ومن ثم عمد الى جمع صفوف القوط لمواجهة المسلمين ، فاتصل بأبناء غيطشة وسائر أفراد بيته وصالحهم ، ليكونوا جميعا يدا واحدة . ولكن أعمال لوذريق فى تلك السبيل جاءت متأخرة ، لأن بيت غيطشة ظل على ولائه سرا للخطة التى وضعها مع يوليان ، ولم ينس ما حل به من أذى واضطهاد وتشريد على يدى لوذريق . وفى الوقت نفسه ظل أبناء هذا البيت على اعتقادهم بأن المسلمين لم يأتوا للفتح ولكن للحصول على المغانم مقابل مساعدتهم فى القضاء على لوذريق .

وزحف لوذريق سريعا ، واحتل قرطبة ليحول بين المسلمين وبين الاستيلاء عليها ، لأنها المفتاح الذى يسيطر على سهول الأندلس الجنوبية الشرقية ، ويمكن لصاحبها من الاستقرار فى البلاد . وكان طارق يريد فعلا الاستيلاء على قرطبة ، فقد زحف على هذه المدينة بعد انتصاره فى جنوب اسبانيا ، وسلك الطريق المار بجزيرة طريف ، ثم زحف شمالا بعد ذلك حتى اقترب من بحيرة الخندق ، التى يخترقها نهر صغير يسمى «البرباط» . وفى ذلك المكان قامت

مدينة صغيرة سماها المسلمون « بكة » ، ونسبوا اليهـا النهر ، الذى صار يعرف باسم « وادى بكة » ، وحرف بعض المسلمين هذه التسمية الى « وادى لكة » .

وعند وادى بكة عرف طارق بن زياد عن طريق عيونه أن لوذريق علم بنبأ الحملة الاسلامية ، وأنه وصل الى قرطبة واستولى عليها، كما أنه تابع زحفه جنوبا واتخذ معسكره عند شـذونة فى سهل البرباط ، وأنه صار بذلك على أهبة القتال . وبلغ جيش القوط تحت امرة لوذريق مائة ألف ، وضم عددا عظيما من الفرسـان . وأدرك طارق بن زياد أن العدد الذى معه من جند المسلمين لا يكفى لقتال قوات لوذريق الهائلة . ولذا أرسـل الى موسى بن نصـير يشرح له الموقف ، ويطالب اليه الامدادات ، وقال : « ان لوذريق زحف اليه بما لا قبل له به ، الا أن يشاء الله » .

وكان موسى بن نصير ، منذ دخل طارق اسبانيا ، يتابع سير الحملة خطوة خطوة ، ويتخذ الاحتياطات الكفيلة بنجدتها فى الوقت المناسب . ومن أهم الأعمال التى قام بهـا موسى بن نصير فى تلك السبيل هو اعداد أسطول كبير ، يتكون من عدد من السفن الصالحة لنقل الجند مرة واحدة ، لا على دفعات ، كما حدث عند ارسـال حملة طارق . ذلك أن المسلمين بعد أن سيطروا على بحر الزقاق « مضيق جبل طارق » ، لم يعودوا فى حاجة الى اخفاء حركاتهم ، ولا فى حاجة الى الاعتماد على سفن يوليان القليلة العدد . وأشارت المراجع الى هذه الاستعدادات التى قام بها موسى بن نصير ، وأنه « منذ وجه طارقا لوجهه قد أخذ فى عمل السفن حتى صار عنده منها عدد كبير » . وبرهن موسى بن نصير عن كفايته فى هذه المرحلة الخطيرة من مراحل نشر الاسلام فى أوربا وأنه حرى أن يدعى ليقظته « بالقائد الذى لم يهزم له جيش قط » .

وكان موسى بن نصير قد اتخذ لكل حالة ما يناسبها . فأعد حملة أخرى من خمسة آلاف جندى ، نقلهـا مرة واحـدة على

الأسطول العربى الى اسبانيا . ومما يدل على يقظة موسى بن نصير وقدرته على تصريف الأمور فى سرعة فائقة أنه بعث تلك الامدادات تحت قيادة طريف بن ماوك ، الذى قاد أول حركة استطلاعية فى أرض اسبانيا ، ليضمن بالتالى تجنب تأخير ماقد ينجم عن الجهل بالطرق ومدارجها .

وجاء ارسال هذه النجدة سريعا وفى وقت قصير دليلا ناصعا أيضا على أن خطوط المواصلات كانت سهلة ومنتظمة ومأمونة بين موسى بن نصير وطارق بن زياد ، أى بين مقر القيادة العليا فى القيروان وميدان القتال فى اسبانيا ، وان قائد الحملة الاسلامية لا يعيش فى عزلة بسبب ماتوهمته بعض المراجع من قصة احراق السفن . ولذا وصلت الامدادات الاسلامية الى طارق فى اللحظة الحاسمة التى كان القوط فيها على وشك شن الهجوم على المسلمين . وفى الوقت نفسه كشفت تلك النجدات الاسلامية عن أن موسى ابن نصير سار فى فتح الأندلس وفق خطة مرسومة ومدروسة بعناية فائقة ، تهدف الى فتح البلاد اسلاميا لا من أجل الحصول على المغانم . فضمت تلك النجدات عددا كبيرا من الخيالة ، على حين كان معظم جند طارق من الرجالة ، أى أن القيادة العليا فى القيروان كانت تعرف احتياجات الحملة وما يكفل لها الفوز والاستمرار فى القتال .

وأعد طارق بن زياد قواته للمعركة ، ثم وقف بين جنده خطيبا يحثهم على الاستبسال فى القتال ، شأنه فى ذلك شأن قادة الفتوح العربية ، الذين دأبوا على رفع روح جندهم المعنوية بالقاء خطاب حماسى بينهم قبل نشوب المعركة . وتعتبر خطبة طارق من روائع الأدب العربى ، وعنوانا على انتشار اللغة العربية ، وأنها أصبحت الرباط القوى الذى يجمع بين أبناء المغرب والمشرق . قال طارق مخاطبا جنده :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ،

وليس لكم والله الا الصبر والصدق . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته . وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب عن رعبها فيكم الجرأة عليكم . فأدفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة . وان انتهاز الفرصة فيه لممكن أن سمحتم لأنفسكم بالموت . وانى لم أحذركم أمرا انا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها النفوس ، أبدأ بنفسى .

« واعلموا أنكم ان صبرتم على الأشق قليلا ، استمتعتم بالأرفة الألذ طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذو التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك ، أمير المؤمنين ، من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته ، واظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين » .

« أيهـا الناس : ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، أن حملت فاحملوا ، وان وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال. وانى عامد الى طاغيتهم بحيث لا انهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير . واياكم اياكم أن

ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهانة والذلة . وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة ، فانكم ان تفعلوا والله معكم ومفيدكم تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين ، وهأنذا حامل حتى أغشاه ، فاحملوا بحملتى » (١) .

وفى الوقت الذى عملت فيه خطبة طارق عمل السحر فى نفوس جند المسلمين ، ورفعت من روحهم المعنوية ، كانت العناصر الحانقة على لوذريق تحدث أعمالها ، وتدفع بكثير من أولئك الغاضبين الى الانضمام الى جيش طارق . ووقف الفريقان على ضفتى النهر أخيرا استعدادا للقتال . وكان المسلمون ببساطتهم ويقظتهم موضع الهيبة فى النفوس ، على حين كان منظر القوط يدعو الى السخرية والازدراء . اذ جلس لوذريق فى عربة مطهمة يجرها جوادان ، وعليه أثواب الحرير البراقة ، وهو يحاول عبثا بث روح الحماسة فى جنده . وكان فى جيشه اثنان من اخوة غيطشه ، وهما : أبه وششبرت ، اللذان صالحهما بغية توحيد صفوف القوط ، وجعل أحدهما على الخيالة التى كانت عماد جيش القوط .

وفى يوم الأحد ٢٨ من رمضان سنة ٩٢هـ/١٩ يوليو سنة ٧١١م بدأت المناوشات بين الجانبين على وادى البرباط ، بالقرب من شذونه . واستمرت المناوشات ثلاثة أيام ، أظهر فيهما كل من الجانبين الكثير من ضروب الشجاعة والبسالة دون أن يحصل طرف منهما على نصر يذكر . غير أن أتباع يوليان نشطوا فى أثناء القتال ، وبثوا رجالاتهم وسط جند لوذريق ليصرفوهم عنه ، ويؤكدون لهم

---

(١) نسبت بعض المراجع الى طارق بن زياد قصيدة قالها فى فتح الاندلس :

ركبنا سفينا بالمجاز قصيرا	عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بجنة	اذا ما اشتهينا الشىء منها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا	اذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

ان المسلمين لم يأتوا الى الأندلس للفتح والاستقرار ، ولكن للقضاء على هذا الطاغية ، وأنه اذا تم الاطاحة بحكم لوذريق عادت البلاد ملكا لهم ينعمون بخيراتها . ونجحت دعايات يوليان بين فرسان القوط خاصة تلك التى يتولى قيادتها أحد اخوة غيطشة ، ملك القوط السابق ، الذى قضى عليه لوذريق .

وفى اليوم الرابع من المعركة ظهرت نتائج دعايات يوليان بين صفوف لوذريق . فقد تخلى عنه جماعات الخيالة ، التى كانت العمود الفقرى للعمليات الحربية . وأدى ذلك الى وقوع الاضطراب بين سائر جند القوط ، وهرب الكثيرون منهم طلبا للنجاة . هذا الى أن غالبية الجيش اشتملت على أعداد كبيرة من العبيد الساخطين على حكم القوط المتمنين زواله ، ووجدوا فى تلك المعركة فرصتهم للخلاص مما حل بهم من ظلم واضطهاد . ولما أخذت مظاهر الفوضى تسود الجيش بسبب انسحاب الخيالة تراخى العبيد عن القتال ، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين .

وفر لوذريق تاركا عددا كبيرا من القتلى على أرض الميدان . وحسب البعض أن لوذريق غرق فى النهر الذى دارت المعركة بقربه، لأن الجند وجدوا على الشاطىء بعد انتهاء القتال خفه ، دون أن يعثروا له على أثر . غير أن لوذريق العنيد أبى الاستسلام بعد الهزيمة الساحقة التى نزلت به ، وفر فى داخل البلاد دون أن يكتشف أحد أمره ، مستهدفا جمع فلول القوط مرة أخرى والانتقام ممن انضم من رجاله الى المسلمين .

وبعث طارق بأنباء انتصاراته الى موسى بن نصير ، الذى أبلغها بدوره للخليفة الوليد فى دمشق . ووصف موسى بن نصير هذا النصر الباهر بأسلوب بليغ ، فقال للخليفة : « لم يكن هذا فتحا كغيره من الفتوح يا أمير المؤمنين ، فان الواقعة كانت أشبه باجتماع الحشر

يوم القيامة » . وجنت القيادة الجماعية أول ثمرة من ثمار نشاطها، وبدأت راية الاسلام تعلو خفـاقة فوق غرب أوربا للمرة الأولى فى التاريخ .

وازدادت قوات طارق بن زياد بعد معـركة وادى بكة ، لأن الامدادات انهالت عليه من بلاد المغرب . ورأى هذا القائد أن يتابع زحفه دون ابطاء ليستولى على قرطبة ويقضى على مابها من بقايا جيش القوط . غير أنه لقى فى الطريق الى هذه المدينة مقـاومة عنيفة جعلته يعدل من خطته ، ويبادر بالاستيلاء على طليطلة عاصمة دولة القوط ، ويتوج بذلك انتصاراته فى اسبانيا . وكان السبب فى هذا التطور الجديد هو ما بلغ طارق من أن أنصار لوذريق حين ترامت اليهم الشائعات بأن ملكهم لم يقتل بدءوا يجمعون صفوفهم، مرة أخرى فى طليطلة لمقاومة المسلمين . ومن ناحية أخرى أخـذ انصار الملك السابق غيطشة يجتمعون فى طليطلة ، ويتشـاورون فيما بينهم لاعلان أحدهم ملكا مكان لوذريق المهزوم . ولذا عجل طارق بارسال جزء من جيشه للاستيلاء على قرطبـة ليحمى ممتلكاته بجنوب اسبانيا ، على حين انطلق بنفسه سريعا الى طليطلة قبل أن يتمكن أتباع لوذريق من تحصينها ، وقبل أن يصل أبناء غيطشة أيضا الى قرار يصعب على المسلمين مواجهته . ذلك أن بيت غيطشة ظل واهما (حتى تلك الأحداث) بأن المسلمين ماجاءوا الا للمغانم مقابل مساعدة أبناء غيطشة للوصول الى العرش .

وسيطر طارق بن زياد على طليطلة فى سهولة ويسر ، لأن القوط آثروا تجنب لقاء المسلمين ، انتظارا لما تسفر عنه استعداداتهم . وحاول طارق أن يتتبع فلول القوط الهاربة من طليطلة ، حتى بلغ مدينة أطلق عليها المسلمون اسم « المائدة » ، على مقربة من قلعة هنارس . وهناك عثر المسلمون على كنز ثمين كان عبارة عن مذبح كنيسـة طليطـلة ، المحلى بأغلى ماكان لدى القوط من الذهب والجواهر . غير أن طارقا اضطر الى العـودة الى طليطلة ، لأن

الصيف قد انقضى اذ ذاك ، ورغب فى البقــاء فى العاصمة دون أن يعرض جنده لبرد الشتاء القارس ، وفى طليطلة بلغه أن جيشـه الذى بعث به الى قرطبة قد استولى عليها .

وبسقوط قرطبة ، وانتظار طارق فى طليطلة صارت الأحوال فى اسبانيا تتطلب يقظة خاصة . وكان موسى بن نصير يدرس نتائج الموقف الذى ترتب على فتوح طارق بن زياد ، ويستخدم فى سبيل ذلك كل ما أوتى من مقدرة حــربية وسياسية . ولم يلبث موسى ابن نصير أن رأى أن الموقف فى اسبانيا أصبح يحتم أن يتولى القيادة العليا شخصيا فى هذا الميدان الأوربى المترامى الأطراف .

الفصل الثامن

أستاذ الفن الحربي

أحس موسى بن نصير أن العجلة الحربية الاسلامية بعد معركة وادى بكة قد انطلقت انطلاقا سريعا ، وأن زحف طارق وراء فلول القوط يوشك أن يعرض الفتوح الاسلامية فى البلاد الاسبانية المترامية الأطراف لخطر محقق . ذلك أن خطوط مواصلات المسلمين فيما بين طليطلة والجزيرة الخضراء وبلاد المغرب صارت غير آمنة ، لأن المعاقل الكبرى المبعثرة على امتداد تلك الخطوط لم تخضع للمسلمين ، ولم يسيطر طارق الا على قرطبة فقط من بين تلك المعاقل المتعددة . هذا الى أن قرطبة لم يكن بها سوى حامية صغيرة لا تستطيع أن تؤدى رسالتها كما ينبغى اذا انبعثت أية حركة مقاومة بين صفوف القوط . وكانت جماعات من القوط ما زالت تحكم المدن الخلفية وراء خطوط المسلمين ، وتنتظر الوقت المناسب للانتفاض والعصيان .

وأول من شعر بالخطر الجديد الذى بات يتهدد المسلمين فى أسبانيا هو القائد يوليان ، الذى أقام اذ ذاك فى الجزيرة الخضراء ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين أسبانيا وبلاد المغرب ، وذلك فى الوقت الذى اندفع فيه طارق بن زياد الى طليطلة عاصمة القوط . فقد بعث يوليان مجموعة من رجاله مع المسلمين عند

توغلهم فى البـلاد ، واستطاعت بفضل خبرتها بأهلها أن تدرك ما يدور فى نفوس القوط من غـدر ، وأنهم يتجمعون وفق خطة مرسومة لانزال الأذى بالمسلمين . وأفضى يوليـان الى طارق بما جاءه من أخبار ، وطلب منه ضرورة القيام بعمل حاسم لتأمين ظهر جيوشه . غير أن طارقا لم يجد مفرا من البقاء فى طليطلة بعد أن اندفع اليها ، وآثر البقاء فيها دون القيام بأية أعمال توسعية ، ثم كلف يوليان بأن يتصل بموسى بن نصير فى القيروان ويطلب اليه سرعة المجىء الى أسبانيا لانقاذ الموقف .

ولما جاءت استغاثة طارق الى موسى بن نصير أدرك أن مخاوفه من انطلاق طارق فى فتوحه بعد معركة وادى بكة لها ما يسوغها . وأسرع موسى باعداد جيش مكون من ثمانية عشر ألفا من خيرة جنده : وكان معظمهم من العرب والبربر الذين عرفوا بقوة الشكيمة وشدة المراس ، وممن اشتهروا ببلائهم فى ميدان الحروب ببلاد المغرب . وغادر موسى بلاد المغرب على عجل .

وقسم موسى بن نصير جيشه بحسب القبائل ليسهل عبورها الى الأندلس ، دون أن تقع فوضى فى صفوف الجند . وفى رمضان سنة ٩٣ هـ/ يونيو ٧١٢ م كان موسى بن نصير قد غادر المغرب ووصل الى الجزيرة الخضراء فى الأندلس ، وشيد بها مسجدا ، وانتظر هناك حتى تم عبور سائر الجنـد واطمأن على سلامتهم وحسن ترتيبهم . وفى تلك الأثناء أسرع يوليان الى لقاء موسى ابن نصير ، وعقد معه مجلسا حربيا للتشاور فى الموقف الخطير . وقرر هذا المجلس الحربى أن الضرورة تقضى بالسيطرة أولا على المعاقل التى تركها طارق ، والتى باتت خطرا يتهدد المسلمين .

وبعث موسى بن نصير ، عقب هـذا المجلس الحربى الهام ، رسالة الى طارق بن زياد يأمره فيها بالانتظار فى طليطلة ، وألا يقوم بعمل حربى الا باشعار آخر . ورددت بعض المراجع أن موسى لم يقدم على هذا العمل ، والعبور الى الأندلس ، الا منافسة

لطارق ، ورغبة استبدت به لينال بدوره نصيبا كبيرا من المغانم ، وأن الحسد كان يأكل قلبه ، وأنه صمم على محاسبة طارق على أعماله ، وأنه رأى أن يتولى بنفسه فتوحا أخرى أعظم مما قام بها هذا القائد .

وقد وقعت تلك المراجع فى هذا الخطأ الفاحش لأنها صورت موسى وطارق تصوير القائدين المختلفين ، وأن كلا منهما كان يعمل دون علم الآخر . والمعروف أن طارقا لم يقم بما قام به من أعمال حربية الا باسم موسى بن نصير ، الذى تولى القيادة العليا ورسم الخطط ، وأمد طارقا بكل المساعدات الحربية ، ولا سيما فى ساعة الخطر قبل معركة وادى بكة . هذا الى أن طارق بن زياد كان يرسل الى موسى بن نصير عن طريق يوليان أنباء تقدم المسلمين خطوة خطوة ، مما جعل القيـادة العليـا فى القيروان تتابع الأحداث عن كثب . ثم أن طارقا دأب على الاعلان دائما أن له قيادات عليا لابد من الرجوع اليها . فحينما دخل عليه أبناء غيطشة قالوا له : أنت أمير نفسك أم فوقك أمير ؟ . فقال طارق : « بل على رأسى أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم . فاستأذنوه فى اللحاق بموسى ابن نصير بافريقية . »

وحينما قابل موسى بن نصير أبناء غيطشة لم يغير شيئا مما وعدهم به طارق . وتؤكد تلك الحقيقة بدورها مرة أخرى أن طارقا كان يعترف بأن موسى بن نصير هو القائد الأعلى وصاحب الكلمة الفاصلة فى الموضـوع ، وأنه لم يعمـل مستقلا عن موسى حتى فى تنظيم الأمور السريعة التى كانت تواجهـه فى أثناء عمليات الفتوح . ومن أجل هذا لم يكن هناك سببا يدعو موسى لأن يحقد أو يحسد طارقا على ماتم على يديه من فتح ، لأنه شارك فى هـذا الفتح وأعد خططه . هـذا الى أن موسى لم يكن يتطلع بعبوره الى الأندلس الى الحصول على مغانم ، لأن توزيع الغنائم وغيرها

من ممتلكات القوط ــ على نحو ما حدث مع أبناء غيطشة ــ كان هو المرجع الأخير فيه ، وكلمته هى الفيصل فى كل موضوع .

أما قول تلك المراجع أن موسى كان غاضبا حانقا على طارق فهو قول صحيح ، لأن موسى بن نصير باعتباره القائد الأعلى قد أفزعه زحف طارق السريع بعد معركة وادى بكة ، وتعريضه خطوط مواصلات المسلمين لخطر محقق ، بسبب تركه الكثير من المعاقل والمدن الهامة جريا وراء مطاردة القوط . ومهما يكن من أمر فقد آثر موسى محاسبة طارق عند الالتقاء به فى طليطلة ، وبادر برسم خطط للسيطرة أولا على المراكز الحربيـة وغيرها من المدن التى كانت تهدد خطوط مواصلات المسلمين ، وليدعم فتوح المسلمين قبل الذهاب الى طارق فى طليطلة . وتنهض هذه الخطة التى وضعها موسى بن نصير دليلا على أنه لم يكن يهدف الى القيام بفتوح جديدة تغطى أخبارها وعظمتها ما قام به طارق ، وأن مجيئه الى الأندلس كان ضرورة حربية ملحة ، واصلاح خطأ وقع فيه قائده طارق .

وعمد موسى بن نصير الى تأمين خطوط مواصلات المسلمين بين الجزيرة الخضراء التى نزل فيهـا وبين قرطبة التى تعتبر مفتاح السيادة على جنوب الأندلس . فعجل بالسير الى شذونة ومنها زحف على قرمونة ، ورعواق واستولى عليهما . وبذلك أصبحت المحطات الهـامة على الطريق الى قرطبـة فى أيدى المسلمين ، وصار فى استطاعتهم التقدم من تلك القاعدة نحو الغرب وفتح أشبيلية ، التى كانت أكبر مـدن القوط بعد العاصمة طليطلة ، ومصدر الخطر المباشر على القوات التى كانت تحت قيادة طارق فى داخل البلاد . وكانت أشبيلية تعتبر نقطة التقاء للطرق الهامة فى جنوب الأندلس ، ولا سيما التى تربط الجزيرة الخضراء بداخل البلاد . فكان هنـاك طريقان يربطان أشبيلية بالجزيرة الخضراء التى جعلها موسى مركزا لالتقاء جنده فى اسبانيا . وكان

أحد هذه الطرق بحريا والآخر بريا ، وعلى كل منهما محطات كثيرة ومعاقل . ومن ثم كشف موسى بن نصير عن عبقريته العسكرية حين قصد السيطرة على أشبيلية ، وجعلها مركزا من مراكزه الدفاعية . هذا الى أن أشبيلية اشتهرت بأسوارها الحصينة ومتاجرها الواسعة ، وبهـــذا أصبحت قاعدة كبيرة من قواعد الفتوح الاسلامية فى اسبانيا .

وحاصر موسى أشبيلية بضعة أشهر دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها ، مما يدل على خطر مركز القوط بها ، وقوة استعدادهم للثورة على المسلمين . ولم تسلم تلك المدينـــة الا حين سارع سكانها من اليهود الى خيانة السلطات بها ، وتعاونوا على فتح أبوابها مع نفر من الأهالى الحانقين على ســادتهم من القوط . وانسحبت آخر الأمر حامية القوط الى مدينة باجة ، حيث انضمت الى جموع القوط بها . واكتفى موسى بعد استيلائه على أشبيلية بوضع حامية بها ، وأسرع الى الاستيلاء على مدينة ماردة التى كانت معقلا خطيرا فى أيدى القوط ، خلف خطوط المسلمين .

ووجد موسى بن نصير مدينة ماردة قوية الحصون وأشد منعة من اشبيلية ، فكان لها أسوار منيعة ، يعلوها الأبراج والحصون القوية . ثم ان فلول القوط وانصـــار لوذريق جعلوا تلك المدينة ملجأ لهم بسبب بعدها عن طريق المسلمين ، كما كانت المسالك اليها وعرة وصعبة . ولذا استغرق حصار المسلمين لها آخر الصيف والشتاء التالى له دون أن يسيطروا عليها ، ودار حولها قتال عنيف سقط فيه كثير من الضحايا . فقد أعد موسى كمائن كثيرة أخفاها فى جهات صخرية مواجهة للمدينة ، أنزلت ضربات قاصمة بالقوط كلما رغبوا فى الخروج من معاقلهم ، وقتل كثير من المسلمين أيضا فى محاولاتهم نقب سور المدينة . ولم يستقر الأمر لموسى فى ماردة الا بعد جهد شاق ، بذل فيه الكثير

من الوعود لأهلها ، الذين سلموا بعدها فى شوال سنة ٩٤ هـ/ يونيو ٧١٣ م .

وأيقظت شدة مقاومة القوط انتباه موسى بن نصير الى ضرورة اتباع فن حربى جديد لدعم فتوح المسلمين ، اذ رأى ضرورة وضع المدن التى يفتحها فى يد قادة من المسلمين ، دون الاعتماد على الرجال المحليين ، أو غيرهم من الجماعات التى انضمت اليه فى أثناء زحفه . ذلك أن القوط عمدوا الى الهجـــوم على المدن التى يستولى عليها المسلمون بعد أن تغادرها القوات الرئيسية للجيش ، وافساد الاستقرار الذى يسود تلك المدن . فبعد أن غادر موسى ابن نصـــير اشبيلية ، وبدأ حصـــار ماردة جمع القوط فلولهم فى المدن المجاورة ، وفاجئوا الحامية الاسلامية فى اشبيلية ، وقتلوا منها ثمانين فردا ، وأجبروا الباقين على الخروج من المدينة . وجاء هذا الانقلاب الأخير عنوانا على شدة مقاومة القوط ، والخطر الذى كان يكمن لطـــارق بن زياد ، لولا مجىء موسى بن نصير لانقاذه سريعا وفى الوقت المناسب .

وآثر موسى بن نصير الاستمرار فى حصار ماردة حتى استولى عليها ، ثم بعث بابنه عبد العزيز الى اشبيلية لطرد القوط منها . وانتقى موسى بن نصير بعد ذلك للمدن التى استولى عليها نفرا من خيرة قادته ، ممن اشتهروا باليقظة والبطولة ، مثل عبد الجبار الذى تولى قيادة ميسرة جيشه ، اذ عهد اليه بالاشراف على باجة التى كانت مركز انطلاق مقـــاومة القوط الى اشـــبيلية وغيرها من المدن المجاورة .

واضطر موسى بن نصير ــ أمام تلك المقاومة العنيفة التى لقيها جيشه ــ الى أن يريح جنده فى ماردة مدة شهر تقريبا ، قبل أن يستأنف السير الى طليطلة لمقابلة طارق ، ثم انه قضى فترة الراحة الســـالفة الذكر فى دراسة أساليب مقاومة القوط التى كلفت المسلمين خسائر فادحة ، فاقت ما كابدته قوات طارق من قبل .

فلم يفقد المسلمون بقيادة طارق فى فتح قرطبة أو طليطلة مقدار ما فقدوه فى زحف موسى ولا سيما عند ماردة . وخرج موسى من دراسته بنتيجة هامة ، وهى أن القوط أجادوا اختيار مراكز المقاومة ، حيث تجمعوا فى النواحى الجبلية الوعرة ، ليكونوا على اتصال بنواحى قشتالة واستراماد‌ورة اذا ما تمكن المسلمون من الاستقرار فى فتوحهم شرقى الأندلس ، وتحويل غرب البلاد الى مقر دائم للمقاومة ، والهجوم على المسلمين كلما سنحت الفرصـــة .

وأحس موسى بن نصـير حركات القوط الجـــديدة وهو فى ماردة ، وأدرك أنهم يهدفون الى الهجوم على المدن التى يستولى عليها ، من أجل دفع طارق بن زياد الى مغادرة طليطلة لنجدة القـــائد العام المسلم ، ثم يستردون طليطلة فى غيبـــة القوات الاسلامية عنها . ولذا عمد موسى الى تشتيت خطة القوط بأن ظل يقاومهم أطول فترة ممكنة دون أن يطلب الى طارق المجىء الى مســـاعدته . ولكن ما كاد موسى يغـــادر ماردة حتى جاءته الأخبار أن لوذريق نفسـه ، ملك القوط الذى فر بعد معركة وادى بكة ، بدأ ينظم فلول جيشـه ويجائع أتباعه استعدادا للهجوم على المسلمين مرة أخرى . ثم ان لوذريق ، بعد أن آثر البقاء ساكنا ليضرب ضربته الأخـــيرة فى عنف وشدة ، اختار قوات موسى ابن نصير بالذات لتكون هدفه ليهدم بذلك خطط الفتوح الاسلامية كلها فى الأندلس مرة واحـــدة . اذ رأى هـــذا الملك المخاتل أن موسى بن نصير أســـتاذ الفن الحربى ، وأن الاطاحة به يحمل فى طياته القضاء على جميع ما حصـــــل عليـــه طارق بن زياد من مكاسب .

واتخذ لوذريق مركز مقاومته فى شعاب الهضاب التى تلى وادى آنه الى الشمال فى جبال سييرا دفرانثيا على أبواب قشتالة واستراماد‌ورة فى السهل المنبسط الذى يحيط بسلمنقة . وأجاد

لوذريق اخفاء قواته فى تلك الجهات الوعرة ، حتى ان موسى ابن نصير اضطر أخيرا الى أن يتخلى عن خطته ، وأن يطلب من طارق الخروج من طليطلة ، وأن يلقاه فى منتصف الطريق بين تلك العاصمة وماردة ، لينقذ المسلمين اذا ما دهمهم خطر مفاجىء . وسار طارق نحو مائة وخمسين ميلا ، واتخذ مكانه فى الجهات المعروفة باسم « العرض » بين التاجة ونهر التيتار .

وسار موسى بن نصير مع قواته فى طريق رومانى قديم يصل ماردة وسلمنقة ، وبجوار نهر حمل اسمه فيما بعد ، وهو فاموتا أى نهر موسى ، وذلك بعد أن اتخذ كل الاحتياطات ، حتى لا يؤخذ على غرة . ولما وصلت القوات الاسلامية الى منتصف الطريق السالف الذكر ، اعتقد لوذريق أن الوقت قد حان ليضرب ضربته الأخيرة ، وأن المسلمين لن يجدوا من ينقذهم أو يبادر الى مساعدتهم . وعند ناحية اسمها السواقى ، على مقربة من ثمامس شن لوذريق هجومه ، دون أن يدرى أن موسى بن نصير - شأن أسلافه من القادة المسلمين - قد اتخذ كل الوسائل ليحمى قواته ويجنبها الأخطار . ولذا صمد المسلمون لهجوم القوط ، وأنزلوا بهم خسائر فادحة ، وقتلوا كثيرا منهم ، كان من بينهم لوذريق نفسه ، الذى قتله مروان بن موسى بن نصير . وصار الطريق الى طليطلة مفتوحا أمام موسى بن نصير ، فسار حيث التقى بطارق وقواته ، التى كانت قد غادرت تلك المدينة فى سبيلها الى مقابلته فى عرض الطريق .

ولما كان هجوم لوذريق على قوات موسى بن نصير شعبة من مؤامرة مزدوجة استهدف طرفها الثانى السيطرة على طليطلة وانتزاعها من المسلمين ، اذا ما خرج طارق منها لنجدة اخوانه ، فان جماعات من القوط انتهزت خلو العاصمة من الحامية الاسلامية واستولت عليها اكمالا لحلقة المقاومة ضد المسلمين . غير أن القوات الاسلامية المشتركة بقيادة موسى بن نصير وطارق

ابن زياد تمكنت من هزيمـة القوط ، والسـيطرة على طليطلة مرة ثانية .

وبذلك انتهت مقـاومة لوذريق وجنـده بمجيء قوات موسى بن نصير على عجل ولولا ذلك لانهارت أعمال طارق ، واصيب جنده بكارثة مروعة . فالقوط أحكموا خططهم على أسـاس قطع خطوط مواصلات المسلمين ، والاستفادة من معرفتهم بمعاقل اسبانيا وحصونها . وتكلف موسى بن نصير نفسه فى عملية الانقاذ جهدا كبيرا فاق ما بذله طارق نفسه فى كل فتوحه .

وفى طليطلة أخذ موسى بن نصير يحاسب طارقا على اندفاعه الذى كاد ينزل بالمسلمين كارثة محققة ، ولا سيما بعد أن ثبت عمليا أن القوط كانوا قد أعدوا حركة مقاومة عنيفة . ورددت بعض المراجع أن موسى شد وثاق طارق ، وحبسه وهم بقتله لولا تدخل مغيث الرومى ، مندوب الخلافة فى الحملة الاسلامية الى اسـبانيا ، واسراعه بابلاغ هـذا الحادث الى الخليفـة الوليد بن عبد الملك ، الذى أمر موسى بعدم انزال الأذى بطارق . غير أن هذه الرواية استندت الى شائعات مغرضة رددها القائد مغيث الرومى الذى كان بينه وبين موسى بن نصير سوء تفاهم ، فانتهز فرصة ذهابه الى دمشق ليبلغ الخليفة أنباء انتصارات المسلمين وأساء الى سمعة هـذا القائد . غير أن المقطوع به هو أن موسى بن نصير عنف طارقا ، « ووضع السوط على رأسه » فقط ، رمزا لعقابه .

ولم يتعد المجلس الذى عقد لمحاكمة طارق أكثر مما سلف ذكره ، لأن موسى بن نصـير كان يكن لطارق بن زياد كل تقدير ومحبة ، وأن المودة بينهما ما زالت متبادلة . فقال موسى لطارق معترفا له بما ناله من نصر قائلا : « لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس ، فاستبحه هنيا مريا . فقال له طارق : أيها الأمير ، والله لا ارجع عن قصدى هذا ما لم

أنته الى البحر المحيط » . وهكذا لم يحاول موسى بن نصير على الرغم من محاكمته لطارق أن يغمطه حقــه فى الفتح أو يقلل من شأنه ، وانما اعترف له بمكانته وتقدير الخلافة له . وكل ما تدل عليه هــذه المحاكمة هو أن موسى بن نصــير كان يتحلى بحزم القائد ، وأنه لم يشأ أن يتهاون فى محاسبة فرد ما على ما يبدر منــه من عمل يعرض الجند للخطر ، مهما كانت منزلة العاملين تحت امرته . ومن ثم كان « الضبط والربط » بلغة الوقت الحاضر من الصفات التى جعلت جيش موسى بن نصير ينطلق فى الفتوح آمنا ، دون أن يصاب بنكسات أو كوارث . وضرب موسى بن نصير المثل الأعلى فى الوقت نفسه على احترامه للخبرات العاملة معه ، حين أشــاد بالمكاسب التى حققهــا طارق بن زياد ، وسمح له باستئناف الجهاد تحت رايته .

وعقد موسى بن نصير فى طليطلة مع طارق بن زياد مجلســا حربيا لدراسة الوضع فى اسبانيا ، واستعراض ما تم من فتوح ، وما ينبغى أن يقوم به المسلمون بعد ذلك من عمليــات حربية أخرى . وكان يتحتم على المسلمين دراسة أوضاعهم فى اسبانيا دراسة مستفيضة ، لأن القوط وفلولهم لا تريد أن تلقى السلاح ، وانما عمدت الى المراوغة والمخاتلة ، وهو أمر يتعب كل جيش فاتح . فالجيوش تفضل النزال فى معارك يتقرر بعدها الوضع الحــربى ، ولا تستريح للحــروب المتقطعــــة وأعمــال الاغارات المتفرقة المبعثرة . ولهــذا اســتقر رأى كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد على القيــام بمسح حربى شــامل لسائر الأجزاء الاسبانية التى لم تفتح بعد ، ونشر الاسلام بين ربوعها ، وتطهيرها تطهيرا شاملا من جيوب القوط وفلولهم . وأثبت موسى بن نصير بذلك أنه مازال يولى طارق بن زياد ثقته المطلقة ، وأخذا يعملان معا فى تدوين السطور الأخيرة لاعزاز الدين الاسلامى ، ورفع رايته فى تلك الرقعة من أرض أوربا .

غير أن موسى بن نصـير لم يغفل وسط دراسـاته الحربية ما فطر عليه من مواهب ادارية من شأنها العمل على اقرار ما تم له من فتوح قبل أن يتابع الزحف الحربى على مكان آخر ، وهى السياسة التى اتبعها فى بلاد المغرب . فلم ينطلق موسى بن نصير فى أرجاء المغرب الا بعد أن نظم أحوال « افريقية » وأمن أرجاءها . وسار على هذا المنوال بعد أن فتح طليطلة . فرأى ارضاء أبناء غيطشة حتى ينزع ما فى قلوبهم من مخاوف أو أطماع ، وخاصة بعـد أن رأوا أن المسـلمين ما جاءوا الا للفتح والاسـتقرار فى اسبانيا ، لا للحصول على المغانم فقط . فعين نفرا من أولئك الأبناء فى مراكز كبيرة بالبلاد التى أتم المسلمون فتحها ، واحتفظ لهم بسالف مكانتهم العالية . من ذلك أنه نصب أخا غيطشة ، وهو أبه ، الذى ساعد المسلمين مساعدة كبيرة ، نصبه أسقفا على طليطلة ، وهـو منصب دينى كبـير ، يجعـل صـاحبه ذا مكانة مرموقة فى المجتمع .

واتبع موسى هذه الخطوة بعمل ادارى رائع لتنظيم أحـوال البلاد . فأمر ، وهو فى طليطلة بضرب عملة ذهبية دفع منها رواتب الجند العاملين تحت امرته . ويعتبر سك هذه العملة الذهبية دلالة على سيطرة موسى بن نصـير على الأوضاع فى هـذه البلاد الأوربية الجديدة ، وعلى مهـارته الفائقة فى بناء ادارة عربية مستقرة الأركان فى اسبانيا ، منذ الأيام الأولى للفتح الاسلامى لها . وكانت هـذه العملة الذهبية الاسبانية على غرار العملة التى سبق أن سكها موسى بن نصير فى بلاد المغرب . فكان على وجه من هذه العملة اسم « محمد رسول الله » ، وعلى الوجه الآخر نجمة ذات ثمانية أذرع . والى جانب ذلك أمر موسى بن نصير بضرب عملة برنزية صغيرة لمساعدة الناس على تسهيل عملياتهم اليومية .

واختار موسى بن نصير فى تلك الفترة أحد رجاله الصالحين ،

وهو التابعي علي بن رباح ، وأرسله الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليبلغه ما تم للمسلمين من نصر ، واستقرار فتوحهم في اسبانيا . وخرج مع هذا التابعي مندوب الخلافة فى اسبانيا ، وهو مغيث الرومى ، ليشترك فى نقل صورة عن جهاد المسلمين في اسبانيا .

وشاءت الأقدار أن يدخل سفير موسى بن نصير علي بن رباح الى المسجد فى دمشق عند صلاة العصر ، وسمع القاضي يتحدث عن موسى بن نصير . وعندئذ اعتلى هذا السفير المنبر وقام يدافع عن موسى بن نصير ، فقال : « أيها الناس ، الله الله فى موسى والدعاء عليه . والله ما نزع يدا من طاعة ولا فارق جماعة أنه لفى طاعة أمير المؤمنين والذب عن حرمات المسلمين والجهاد للمشركين ، وانى لأحدثكم عهدا به ، وما قدمت الآن الا من عنده ، وأن عندى خبره ، وما أفاء الله على يده لأمير المؤمنين ، وما أيد به المسلمين ما يقر به أعينكم ويسر به خليفتكم » .

ولما ترامت الى الخليفة الوليد أنباء ما حدث في المسجد ، أسرع في طلب مندوب موسى بن نصير ، وقال له : ما وراءك ؟ . فقال : ما تحب يا أمير المؤمنين ، فان الله قد نصر موسى بن نصير في الأندلس ، وفتح على يديه ما لم يفتح على أحد ، وقد أوفدنى الى أمير المؤمنين فى نفر من وجوه من معه ، مبشرين بما تم من فتوح ، ثم سلم الخليفة كتاب موسى بن نصير . فلما انتهى الوليد من قراءة الكتاب خر ساجدا شكرا لله .

وفى تلك الأثناء كان موسى بن نصير قد أتم تنظيماته فى طليطلة ، واستأنف الجهاد . وكان الاتفاق قد تم بينه وبين طارق في المجلس الحربى ، على أن الوضع الحربى يتطلب الزحف شمالا لتأمين موقف المسلمين في طليطلة وغيرها من الجهات التى سيطر عليها المسلمون . فزحف موسى ومعه طارق نحو الشمال الشرقى لفتح حوض الابرو وما فيه من مدن . واشترك طارق مع موسى

في هذه الحملة ، لأن المقاومة الشديدة التى سبق أن أظهرها القوط حملت القيادة الاسلامية على جمع جهودها ، وتنسيق أعمالها بما يجنب المسلمين الأخطار مرة أخرى .

وقصدت القوات الاسلامية بقيادة موسى بن نصير مدينة سرقسطة ، واقتربت منها على حين غفلة من أهلها . وأراد أسقف المدينة ومن معه من الرهبان جمع ذخائرهم وكتبهم المقدسة والفرار بها . غير أن موسى بن نصير بعث اليهم رسولا من قبله ازال مخاوفهم ، وأعطاهم العهود والمواثيق بالأمان . وبذلك استولى المسلمون على المدينة دون قتال ، وشيدوا بها مسجدا ، صار فيما بعد أحد المراكز الكبرى لنشر الدين الاسلامى وحضارته فى اسبانيا . وقام ببناء هذا المسجد أحد التابعين فى جيش موسى بن نصير ، وهو حنش بن عبد الله السبأى الصنعانى .

وتابع موسى بن نصير زحفه بعد ذلك ، واستولى على كثير من المدن الهامة فى تلك الجهات . ويبدو أن المؤن بدأت تقل عند الجند ، مما دعا موسى الى العمل على رفع الروح المعنوية بينهم . فقال أحد قادة الجيش ، وهو عبد الله بن المغيرة بن أبى بردة : كنت ممن غزا مع موسى بن نصير حتى بلغنا سرقسطة ، ثم أتينا على مدينة على بحر ولها اربعة أبواب ، وفرض عليها المسلمون الحصار ، وكان الموقف يتطلب البقاء على هذا الحصار مدة طويلة . والتفت موسى الى نفر من قادته ، وقال لهم : هل معكم مؤن تكفيكم مدة الحصار ، ولكنهم أجابوا بالنفى . وعندئذ عدل خطته ، واقتحم الأسوار عنوة ، ووجد الجند المسلمون فى المدينة من المؤن ما فرج ضيقهم ، وساعدهم على استئناف القتال .

وتتابعت مواهب موسى بن نصير فى الكشف عن نفسها فى تلك الجهات الجبلية الوعرة ، ودأبه على رفع روح جنده المعنوية . فذكر قائد آخر ممن اشتركوا مع موسى بن نصير فى القتال شمالى

سرقسطة قائلا : حاصرنا حصنا لم نقدر عليه . فلما طال ذلك نادانا موسى بن نصير ثم قال : أيها الناس ، انى أمام الصفوف ، فاذا رأيتمونى قد كبرت وحملت فكبروا واحملوا . واستولت الدهشة على عقول الناس ، وخشوا مغبة هذه المغامرة ، بعد ان طال حصارهم الحصن دون جدوى . وظل موسى يكبر والناس من ورائه ، ثم هجم على الحصن بعنف ، فانهدمت جدرانه ، وانطلقت خيالة المسلمين الى الداخل ايذانا بالنصر .

وردت الروايات أحداثا تدل على أن موسى كان يحب الفأل الحسن . ومن ذلك أنه حين مر بمدينة من المدن ، تقدم اليه أسقفها وقال له ، انا لنجدك فى كتب الحدثان عن دانيال بصفتك صيادا بشبكتين ، رجل لك فى البر ، ورجل فى البحر ، تضرب بهما ها هنا وها هنا فتصيد . وسر موسى بهذا القول وأعجبه وتفاءل به . وظلت القوات الاسلامية تتابع زحفها حتى بلغت مشارف جبال البرت (البرانس) ، وشاهد المسلمون سكان تلك الجبال من القبائل البسقاوية (البشكنس) ، واستمعوا الى لغتهم الغريبة التركيب والأصوات .

وفى الوقت الذى كان فيه موسى بن نصير يبذل كل ما لديه من جهد لتأمين ممتلكات المسلمين شمالى سرقسطة جاءه مندوب الخلافة ، وهو مغيث الرومى ، ومعه أمر من الخليفة الوليد ، لكل من موسى بن نصير وطارق بن زياد بالمجىء الى البلاط ومقابلته شخصيا فى دمشق . ورأى موسى بحنكته الحربية ، ومقدرته السياسية أن هذا الاستدعاء جاء فى وقت غير مناسب ، لأن مطاردة القوط لم تنته بعد ، كما أن فتح البلاد يتطلب السيطرة على المعاقل الشمالية الجبلية . أضف الى ذلك أن موسى أحس أن أمرا قد دبر له فى دمشق ، ويحتمل أن هذا التدبير هو السر فى استدعائه الى عاصمة الخلافة . ولكن موسى بن نصير الذى لم يعرف غير التفانى فى أداء الواجب ألح على مغيث الرومى أن يؤجل

تنفيذ طلب الاستدعاء حتى ينتهى من العمليات الحربية ، ومنحه قصرا فى قرطبة يقيم فيه ريثما يفرغ المسلمون من مهمتهم .

وكان موسى على حق حين طلب الى مغيث السماح له أولا بالانتهاء من عملياته الحربية . اذ كان أمامه عمل آخر خطير وشاق ، وهو الاستيلاء على جهات قشتالة ، لأنها تعتبر المركز المباشر الذى يمكن أن يهدد منه القوط طليطلة وغيرها من البلاد الاسلامية ، ثم ان اقترابها من الجهات الجبلية الوعرة يساعد كل من يتحصن بها على أن يبقى على المقاومة زمنا طويلا . ولذا قسم موسى قواته قسمين ، عهد بواحد منهما الى طارق ، وجعل مهمته السير غربا ، على حين قاد هو الشطر الثانى واتجه فى البلاد شرقا . وقصد طارق بن زياد الى جبال كنتبرية ، وأخضع جماعات البسقاوية غربى نهر الابرو . ودخل كثير من سكان تلك الجهات فى الاسلام على يد طارق بن زياد ، وصاروا يكونون نواة كثير من الأسر الأندلسية الاسلامية ، التى قدر لها أن تمثل دورا هاما فى تاريخ البلاد فيما بعد .

وفى الوقت نفسه سار موسى بن نصير على الضفة الشرقية لنهر ابرو فى اقليم قشتالة ، ورحب به زعماء البلاد كذلك ، ودخلوا فى طاعة المسلمين . غير أن نفرا من فلول القوط آثروا الفرار أمام الزحف الاسلامى الى المناطق الجبلية الساحلية الشمالية ، واعتصموا بمكان اسمه « الصخرة » . وطارد موسى تلك الفلول حتى بلغ خيخون ، وجعل منها حصنا يحمى ما تم على يديه من فتوح فى تلك الجهات القاصية . وصارت تلك الجهات تكون أقصى ما وصل اليه المسلمون فى منطقة أشتريس ، حيث بدأ موسى بن نصير يعد العدة للعودة من تلك الجهات النائية .

وتم فى ذلك الوقت أيضا اخضاع المنطقة الساحلية ، بين مالقة وبلنسية ، واخماد الفتن التى حاول القوط القيام بها . واضطلع

بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى بن نصير ، الذى اشترك مع والده فى اكمال الفتوح الاسلامية فى اسبانيا . وسار هذا القائد على نهج والده فى معاملة أهالى البلاد المفتوحة بالرفق والتسامح ، والعدل فى فرض الضرائب ، ومن ذلك ما حدث حين زحف عبد العزيز بن موسى على مالقة ثم غرناطة ، وهى كلها سلمت له دون قتال . وأخيرا وقف هذا القائد عند أريولة التى خضعت اذ ذاك لقائد من قادة القوط اسمه تدمير . وكان هذا القائد القوطى ابن أحد كبار رجال غيطشه ، ومن الكارهين للوذريق . ولذا رحب بجيوش المسلمين دون أن يرغب فى تسليم مدينته لهم . ولكن لما اقتربت جيوش عبد العزيز من عاصمته أراد أن يأخذ لنفسه ضمانات وثيقة قبل أن يسلمها لهم . ولذا لجأ الى حيلة تدل على ذكائه ومهارته ، على الرغم من قلة جنده اللازمين للدفاع عن مقره ، « فأمر النساء فنشرن شعورهن ، وأعطاهن القصب ، وأوقفهن على سور المدينة ، وأوقف معهن بقية من بقى من الرجال فى وجه الجيش حتى عقد على نفسه . ثم هبط بنفسه كهيئة الرسول ، فاستأمن فأمن ، فلم يزل يروض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده . فسلمت تدمير صلحا كلها ليس منها عنوة لا قليل ولا كثير ، وعاملهم على ترك أموالهم فى يديه . فلما فرغ أبرز لهم اسمه ، وأدخلهم المدينة ، فلم يروا فيها أحدا عنده مدفع . »

ويبدو ان عبد العزيز بن موسى بن نصير أراد دعم سياسة المسلمين فى تلك الجهات بالتسامح مع أهلها ، وبخاصة من عرف عنه من رجال القوط الكراهية للعهد القديم . ولذا رضى أن يمنح تدمير معاهدة صارت نموذجا للوثائق السياسية الاسلامية فى عصر الفتوح فى اسبانيا ، ومنها ما يلى :

« نسخة كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير عبدوش — بسم الله الرحمن الرحيم من عبد العزيز الى

تدمير ، انه نزل على الصلح ، وأنه له عهد وذمة ، الا ينزع عنه ملكه ، ولا أحـد من النصارى عن أملاكه ، وانهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبد وتصح ، وأن الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن ... وأنه لا يأوى لنا عدوا ، ولا يخون لنا أمنا ، ولا يكتم خبرا علمه . وأنه عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة ، وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كتب في أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة . »

وتمثل هـذه المعاهدة السياسة الحكيمة التى سار عليها موسى بن نصير فى فتح اسبانيا ، وهى السياسة التى جعلت البلاد تدخل عهدا جديدا ، حمل لها الكثير من التطورات الهامة الاجتماعية والسياسية والثقافية . فالمعروف ان اسبانيا قبل الفتح الاسلامى كانت تعانى من جور القوط وظلمهم . فقد حكمت اقلية طاغية شعبا بأسره ، وفرضت عليه الضرائب الفادحة ، فضلا عن العبودية والذلة . أما الاسلام فحمل اليهم نعمة العدل والحرية والمساواة . وكان موسى بن نصير ـ على الرغم من انشغاله بالفتوح ـ حريصا على تنظيم ادارة البلاد بالقـدر الذى يستطيع القيام به . ولذا شاهدت اسبانيا ، مع دخول الجيوش الاسلامية فيها روحا جديدة من العزم والأمل . فبدأت الزراعة تزدهر ، وتنشط التجارة والصناعة بعد ركود طويل .

وشعر أهالى البلاد مع امتداد الفتح الاسلامى طلائع المساواة ، وخاصة فى الضرائب ، وهو أمر لم يألفوه منذ زمن طويل . هذا الى احترام حرية العقيدة ، وازالة الاضطهاد الدينى . وردد كثير من الباحثين فى التاريخ الأوربى المظـاهر الجديدة التى سـادت الشطر الغربى من أوربا فى بلاد اسبانيا ، عقب الفتح الاسلامى . وسجلت لهـذا الدين الحنيف مظاهر الحياة الجديدة الوثابة

التى نفحها فى تلك البلاد . فذكر أحد أولئك المؤرخين : « كان الفتح العربى من بعض الوجوه نعمة لاسبانيا ، فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد منذ قرون ... وتحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى ، ووزعت الأراضى توزيعا كبيرا ، فكان ذلك حسنة سابغة ، وعاملا فى ازدهار الزراعة ابان الحكم العربى . ثم كان الفتح عاملا فى تحسين أحوال الطبقات المستعبدة ، اذ كان الاسلام أكثر معاضدة لتحرير الرقيق من النصرانية كما فهمها أحبار المملكة القوطية ، وكذا تحسنت أحوال أرقاء الضياع ، اذ غدوا من الزراع ، وتمتعوا بشىء من الاستقلال والحرية » .

وأضاف مؤرخ آخر وصفا للتطورات التى حدثت لاسبانيا نتيجة الفتح الاسلامى قائلا : « فى أقل من أربعة عشر شهرا قضى على مملكة القوط قضاء تاما ، وفى عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر المتوسط وجبال البرنيه . ولا يقدم لنا التاريخ مثلا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت فى هذا الفتح . وقد كان المظنون فى البداية أن الغزو انما هو أمر مؤقت فقط ، ولم يتوقع أحد أن يكون استقرار المسلمين دائما . فلما استقر المسلمون ، وفتحت الثغور للتجارة ، وأقيمت المساجد ، أدرك القوط فداحة الخطب الذى حل بهم . ولكن اعتدال المسلمين خفف من ألم الهزيمة . وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح لكل فرد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة ، والأحبار يزاولون شئونهم فى سلام . أما قول الكتاب النصارى التى ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب فهى محض مبالغة أو افتراء » .

وليس فى أقوال المؤرخين السالفي الذكر شىء من المبالغة ،

ذلك أن موسى بن نصير ، فاتح الأندلس ، استطاع بفضل قيادته الحكيمة أن ينقل الاسلام الى تلك الجهات بالصورة الرائعة التى انتقل بها هذا الدين الحنيف الى شتى أرجاء العالم . وفى الوقت نفسه امتاز موسى بن نصير على أقرانه من قادة الفتوح العربية فى الجهات الأخرى ، بأنه استطاع دعم أوتاد هذا الدين فى بيئة جديدة ، هى بيئة غرب أوربا ، التى لم يكن العرب يعرفون عنها شيئا حين نزلت الدعوة الاسلامية بين ظهرانيهم . فبينما كان العرب قبل الاسلام يعرفون معرفة جيدة أرض فارس واكاسرتها ، وبلاد الروم وقياصرتها كانوا لا يعرفون شيئا عن شبه جزيرة أيبيريا وجماعاتها من القوط .

ومن ثم تتضح مقدرة موسى بن نصير ، وما انفرد به من عمل جليل فى سبيل نشر راية الاسلام حين نتابع جهاده خطوة خطوة فى تلك الرقعة من غرب أوربا . فالشعب الأيبيرى الذى نقل اليه موسى بن نصير الاسلام كان شعبا أوربيا ، فى داخل نطاق الحضارة الرومانية القديمة ، يتكلم بلغة رومانية أيبيرية يغلب عليها الطابع الرومانى . وسمى العرب تلك اللغة حين سمعوها لأول مرة باسم لغة العجم . ولكن موسى بن نصير بعد أن دخل الأندلس حرص على أن يظهر لأولئك السكان أن المسلمين لم يدخلوا سادة قاهرين ، بل دخلوا اخوة يكنون لهم كل ود وتقدير ، وبعبارة أخرى جعل موسى بن نصير امتداد الاسلام الى اسبانيا جزءا من حركة الامتداد الدينى الفكرى التى بعثها الاسلام فى العالم القديم فى القرن السابع الميلادى . فما كاد الاسلام يصل الى بلد من البلاد حتى أيقظ أهله ودفعهم لحمل رايته .

وكان موسى بن نصير أيضا حريصا على أن يظل المسلمون العاملون تحت رايته ، سواء من العرب أو البربر مثلا عليا أمام شعب اسبانيا . فلم يترفع أولئك الفاتحون المسلمون على أبناء البلاد ، وانما امتزجوا معهم وصاهروهم ، وشاركوهم أيضا فى

مباهج البلاد ومسراتها ، يطلبون العيش فى سلام جنبا الى جنب مع أهلها . وكان شعب اسبانيا من العنصر الأيبيرى المسالم المحب لحسن العشرة ، ومن ثم أنس الى الفاتحين الجدد سواء من العرب أو البربر وأقبل عليهم طواعية لا عن ضغط وارهاب ، ووجد فيهم محررين من بطش القوط وظلمهم الفاحش . وحرص موسى بن نصير عندما تم له فتح الأندلس أن يوضح للشعب الاسبانى أن المعركة كانت منذ أيامها الأولى معركة ضد القوط ، وليست ضد الشعب الآمن الوديع . ولم يحاول الفاتحون ادخال أبناء الشعب قسرا فى الدين الاسلامى ، وانما حرصوا أولا على بيان فضائل هذا الدين حتى يتبينه الناس ، ويدخلوا فى رحابه ايمانا بأركانه وقواعده .

ثم عمد موسى الى تنظيم الأحوال المالية للبلاد ، حتى يجنبها الاضطرابات ، ويهيىء لها أسباب الاستقرار . وقد طبق على اسبانيا القواعد التى اتبعها العرب الفاتحون فى شتى الجهات التى استولوا عليها . فالأراضى التى فتحت عنوة قسمت بين الفاتحين بعد أخذ الخمس لبيت المال ، أما الجهات التى فتحت صلحا فتركت بيد أصحابها مقابل دفع العشر من نتاجها . على حين ذكرت احدى الروايات أنه بعد أن تم فتح المسلمين للأندلس قسمها موسى بن نصير بين الجيوش « وأخرج من أرضها ورباعها الخمس ، كما أخرج من سبيها ومتاعها ... وأما سائر الناس النصارى الذين كانوا فى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة ، فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية ، فى أرض الثمر وأرض الزرع ، على ما فعل خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم يهود خيبر فى نخلهم وأرضهم » .

ولا شك أن هذا التنظيم المالى لم يكن عملا هينا بالنسبة

لموسى بن نصير ، وبخاصة فى تلك الجهات من غرب أوربا ، التى لم تعرف منذ زمن بعيد لونا من ألوان الادارة العادلة . فالمعروف أن القوط كانوا يستبيحون لأنفسهم ثروات البلاد ، ويعتبرون السكان اقنانا يعملون فى الأرض ، ولا هم لهم الا انتاج ما يحتاج اليه سادتهم من القوط . ولذا جاءت تنظيمات موسى بن نصير فى اسبانيا وسيلة جيدة لخلق الامتزاج السليم بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين . فالأراضى المنبسطة فى الجنوب ، أى جنوب الوادى الكبير اعتبرها موسى بن نصير أرضا مفتوحة عنوة ، فقد تم الاستيلاء عليها بعد معارك عنيفة ضد لوذريق . وقسم موسى بن نصير أربعة أخماس هذه الأرض الى اقطاعات بين الفاتحين ، على حين بقى الخمس ملكا للدولة . أما بقية أرض الأندلس فقد اعتبرت أرض صلح ، وهى الأراضى الواقعة شمال الوادى الكبير من شبه جزيرة أيبيريا . فأخذ أهل كل ناحية لأنفسهم عهدا ، وهذا العهد يقرر ما عليهم من مال للدولة .

وبذلك سار الاستقرار فى بلاد اسبانيا سريعا حيثما سار موسى بن نصير ، وبدأ العرب والبربر ينتشرون فى شتى الجهات فى طمأنينة وسلام . واستقر العرب دائما فى المناطق المنبسطة والمنخفضات ، أى فى النواحى الدافئة قليلة المطر فى الجنوب والشرق والغرب وفى ناحية سرقسطة . أما البربر فاختاروا المناطق الجبلية التى سبق أن ألفوا مثلها فى وطنهم ببلاد المغرب . فبينما نزل العرب فى المناطق الواطئة بجنوب اسبانيا مثل شذونه واستجه ، فضل البربر منطقة رنده الجبلية ، واختاروها سكنا لهم . ونزل بعض البربر فى مناطق متفرقة كذلك أو فى بعض الهضاب حسبما راقهم ذلك .

واستطاع كل من العرب والبربر الامتزاج بأهالى البلاد الأصليين ، وارتبطوا معهم برباط الزواج . وكان للبربر خاصة أثر عظيم جدا فى انتشار الاسلام فى الأندلس ، بسبب قرب

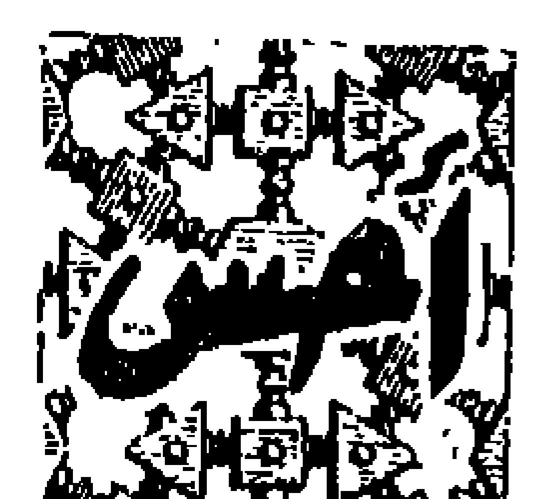
مزاجهم وطباعهم من أولئك السكان . هذا الى أن البربر بسبب حداثة عهدهم بالاسلام كانوا شديدى الحماسة للدين الجـديد ، لأنه صار رمز سيادتهم وعزهم . وحرص موسى بن نصير على ترك حاميات من جيشه فى المدن التى فتحها ، وهذا هو الأمر الذى جعل معظم أرجاء أسبانيا تعمر بالفاتحين الجدد ، وتمهد اسبانيا فى سرعة ويسر لاعتناق الدين الاسلامى الحنيف .

وبهذا نقل موسى بن نصير الى غرب أوربا دماء جديدة ودينا حنيفا ، وادارة عربية حازمة . وساعد هذه الادارة أيضا على أداء مهمتها فى سهولة ويسر وجود نفر من خيرة العمال العرب الذين نصبهم موسى بن نصير عمالا على المدن والأقاليم الأسبانية. وكان من بين أولئك العمال نفر من مشاهير التابعين ، هذا الى مجموعة من أبطـــال البربر ، الذين اشتهروا بالتفـــانى فى أداء الواجب . ومن أمثلـــة المجموعة الأولى عبد العزيز بن موسى ابن نصير ، الذى نقل عن والده المقدرة فى حسن السياسة والادارة ومن أمثلة المجموعة الثانية رجل من قادة البربر ، وهو مونوسه ، الذى تولى الاشراف على نواحى اشتريس وجليقية ، التى كانت آخر ما وصلت اليها فتوح موسى بن نصير .

واستطاعت الادارة العربية التى شيدها موسى بن نصير أن تضع الحجر الأساسى لبناء الحضارة العربية فى أسبانيا ، وجعلت من تلك البلاد أعظم مركز للاشعاع الحضارى فى أوربا فى العصور الوسطى . ومن ثم أخذت اسبانيا تخطو سريعا فى مضمار الازدهار العلمى ، وتدخل سجل التاريخ باعتبارها الشريان الذى نقل الى أوربا ثمار العرب ومعارفهم ، وهيأ لسكان غرب أوربا السبيل للخروج من جهالة العصور الوسطى الى نور الاسلام وضـــوء الحضارة العربية الساطع .

الفصل التاسع

موكب النصر



موسى بن نصير عنـــدما اقترب من جبـــال البرت (البرانس) ، أن سلطانا يجذبه الى ما وراء تلك الجبال ، ويدفعه الى نقل الفتوح الاسلامية الى الجهات الرحيبة هنـــاك . وكانت تطلق على تلك الجهات فى ذلك الوقت اسم بلاد الغال ، وهى فرنسا فى الوقت الحاضر . ويبدو أن تفكير موسى بن نصير فى عبور جبال البرانس والاتجاه الى جنوب بلاد الغال جاء وليد دراسة لأحوال دولة القوط ، ومطاردته لفلول هذا العدو العنيد . ذلك أن الاقليم الجنوبى من بلاد الغال والذى عرف اذ ذاك باسم اقليم سبتمانيا كان جـــزءا من دولـــة القوط التى انهـــار سلطانها على يد موسى بن نصير . ومن ثم كان بقاء اقليم سبتمانيا تحت سلطان القوط خطرا يتهدد المسلمين فى اسبانيا ، حيث يمكن اتخاذه ملجأ للعناصر الكارهة والحاقدة على الفتح الاسلامى فى شبه جزيرة ايبيريا ، وخصوصا أن القوط عرفوا بميلهم الشديد الى مقاومة المسلمين .

وكان يسكن بلاد الغال عنصر جرمانى آخر من العناصر التى ينتسب اليها القوط حكام اسبانيا قبل الفتح الاسلامى . ولكن العصر الجرمانى الذى سكن بلاد الغـــال امتـــاز على عنصر القوط

بقدرته على تجديد نشاطه ، وعدم الركون الى الهدوء والدعة والأخذ بمظاهر الترف . ويعرف هذا العنصر باسم « الفرنجة » ، الذى تطلع الى بسط سلطانه على سائر أرجاء بلاد الغال ، فى الوقت الذى سيطر فيه موسى بن نصير على معظم جهات اسبانيا . وتولى حكم دولةالفرنجة فى الوقتالذىاقترب فيه موسى بن نصير من جبال ألبرب ملك اسمه شارل ، وهو الذى عرف فى المراجع العربية باسم « قارله » .

واشتهر قارله بالدهاء ، واتباع الحذر فى بسط سلطانه على بلاد الغال . فلم يشأ أن يتعرض لاقليم سبتمانيا التابع للقوط حتى ينتهى من دعم نفوذه فى شمال البلاد . وكذلك آثر ألا يتدخل فى شئون هذا الاقليم حين أرسل موسى بن نصير عدة حملات استطلاعية الى سبتمانيا ، من أجل مطاردة فلول القوط . وكانت الحملات الاسلامية قد سيطرت على قرقشونة وأربونة وغزت أيضا وادى الرون الذى أطلق عليه العرب اسم نهر « رذونة » وقد اضطرب حكام الفرنجة نتيجة امتداد الزحف الاسلامى الحربى الى بلادهم ، واتجهوا الى قارله يتشاورون معه فى الموقف ، ويتدبرون معه الأمر كذلك .

وقال الفرنج لملكهم قارله : « ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب ؟ ، كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها ، فاستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعتاد ، وقلة عددهم وكونهم لا دروع لهم . » فأجابهم قارله : الرأى عندى ألا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى اقبال من أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع . » وهكذا رأى قارله عدم التعرض للمسلمين فى تلك الأيام الأولى من اغارتهم على جنوب فرنسا ، وآثر ترك هذا الوضع الى ما قد ينكشف عنه الأمر من تصريف الأقدار .

وكان موسى بن نصير قد استولت عليه فكرة بعد أن اضرب من جبال ألبرت ، خلاصتها أن يخترق بجيشه جميع بلاد أوربا حتى يصل الى الشام عن طريق القسطنطينية ، وأن يستولى أثناء ذلك على جميع البلاد الأوربية . فروت المراجع أن موسى بن نصير راودته فكرة ، « أن يأتى الى المشرق من طريق القسطنطينية ويتجاوزه الى الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم وامم النصرانية مجاهدا فيهم داعيا لهم الى ان يلحق بدار الخلافة » . ورأى موسى بن نصير أن ينفذ هذا المشروع العظيم عن طريق اعداد جيش ضخم يخترق به جبال البرت ، ويساعده أسطول بحرى كبير يسير بازاء الساحل الجنوبى لأوربا ، ثم يبدأ بالاستيلاء على دولة الفرنجة ، ثم يتبعها بالسيطرة على بلاد لومبارديا بشمال ايطاليا ، ثم روما فى وسط تلك البلاد ، وينطلق أخيرا فى سهول الدانوب حتى يصل الى القسطنطينية ومنها يعبر آسيا الصغرى حتى يدخل دمشق .

ويبدو أن السبب فى رواج هذه الرواية ، والتصاقها بموسى بن نصير هو المحاولات الاسلامية العديدة التى قامت بها الخلافة الأموية فى دمشق من أجل السيطرة على القسطنطينية وقد عجزت هذه الحملات عن تحقيق مهمتها ، برغم قرب القسطنطينية من قاعدة الخلافة الأموية . وقد فرضت احدى تلك الحملات الاسلامية الأموية حصارا بريا بحريا على القسطنطينية أيام الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، استمر سبع سنوات . ولذا راودت موسى بن نصير هذه الأحلام العريضة فى الزحف على القسطنطينية عبر جنوب أوربا . ويحتمل أن أحوال أوربا اذ ذاك جعلت هذا القائد يعتقد أن تحقيق مشروعه امرا هينا . فمعظم دول غرب أوربا وجنوبها كانت تسكنها عناصر جرمانية مفككة ، تفتقر الى القوة اللازمة لصد المسلمين . ثم انه لم يوجد فى بلاد أوربا أيضا شخصية تستطيع لم شمل هذه الدول المتفرقة . وكل ما هناك هو قيام بعض أبناء البيت

انفرنجى (فى غالة ، وهى فرنسا الحالية) ، ومنهم قارله ، ومحاولتهم توحيد كلمة أهل فرنسا . ولكن قارله نفسه أدرك قوة المسلمين التى سيطرت اذ ذاك على اسبانيا ، والتى هاجمت المناطق الجنوبية من بلاده نفسها فى غالة ، وآثر الانسحاب من الموقف تاركا هذا الميدان الجنوبى تحت رحمة المسلمين .

ومهما يكن من أمر فان اغارة موسى بن نصير على اقليم سبتمانيا بجنوب بلاد الغال فتح أمامه آفاقا جديدة ، ومشاريع عريضة بدأت تداعبه . وكانت هذه المشاريع تحتاج جريا على سياسة العرب فى الفتوح الى تأسيس القواعد المستقرة . فالمعروف أن فتح اسبانيا لم يتم الا بعد أن دعم موسى بن نصير فتوح المغرب . وعلى هذا النحو سارت الجيوش العربية فى كل مكان ، لا تنطلق الى ميدان جديد الا بعد خلق قاعدة قوية لها ، تساعدها على هذا الانطلاق ثم الفوز .

وكان موسى بن نصير نفسه ينقد أسلافه من قادة الفتوح العرب فى شمال افريقيا ، لأنهم عمدوا الى الانطلاق السريع فى البلاد قبل أن يؤسسوا لهم قاعدة قوية فى تلك الأرجاء ، ونسب الفشل الذى حل بمشاريعهم الحربية الى اغفالهم هذه الحقيقة الأولية فى فنون القتال . ودأب موسى بن نصير على أن يضرب لمستشاريه مثلا على ذلك من أعمال عقبة بن نافع الفهرى . اذ كان هذا القائد على درجة كبيرة من الكفاءة والشجاعة ، ولكنه انطلق وراء العجلة الحربية حتى بلغ شاطىء المحيط الأطلسى ، وأطال خطوط مواصلاته وتموينه ، وهو الأمر الذى دفع عقبة حياته ثمنا له ، واستشهد فى طريق عودته ، وأطاح بالتالى بثمار جهاد المسلمين فى تلك الأرجاء . ويؤثر عن موسى بن نصير أنه « قال حين دخل افريقية ، وذكر عقبة بن نافع : لقد كان غرر بنفسه حين أوغل فى بلاد العدو ، عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه ، أما كان معه رجل رشيد » .

وشاءت الأقدار أن يسمع هذا الكلام من موسى بن نصير أحد قادته الذين رافقوه فى فتح الأندلس ، وهــو حبيش الشيبانى . وأحس هذا القائد بما راود موسى بن نصير من مشاريع واسعة بعد أن استولى على سرقسطة ، واقترب من جبال البرانس ، وبدأت الأحلام تداعبه فعلا فى اختراق جنوب أوربا ، ودخول دمشق من هذا الجانب الأوربى . ويبدو أن الشائعات سرت بين الجند اذ ذاك عما اعتزم موسى بن نصير القيام به ، وأصبح الموقف يتطلب من مستشاريه ابداء النصح الخالص له .

وتقــدم حبيش الشيبانى الى موسى بن نصير ، وهو على مشارف جبــال البرت (البرانس) ، وأخذ بعنــان فرســه ، ثم قال له : « أيها الأمير ، انى سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع ، تقول ، غرر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟ وأنا رشيدك اليوم ، أين تذهب ؟ ، تريد أن تخرج من الدنيا ؟ أو تلمس أكثر وأعظم مما أتاك الله عز وجل ، وأعرض مما فتح الله عليك ، ودوخ لك ؟ . انى سمعت من الناس ما لم تسمع ، وقد ملأوا أيديهم ، وأحبوا الدنيا» . فضحك موسى بن نصير وقال لحبيش : « ارشدك الله ، وكثر من أمثالك فى المسلمين » . وبدأ يعد العدة للعودة الى الأندلس .

وعمل موسى بن نصير آسفا بنصيحة حبيش الشيبانى ، وتخلى عن مشروعه الخاص باختراق أوربا ، والوصول الى دمشق ، حيث يلتقى بقوات المسلمين المهاجمــة للقسطنطينية . اذ قال موسى وهو فى طريق عودته ، مندداً بالذين رفضوا السير معه فى مشروعه السالف الذكر : « أما والله لو انقادوا الى لقدمتهم الى روميـــة (القســطنطينية) ، ثم يفتحهـــا الله على يدى ان شاء الله » . غير أن العامل المباشر الذى حمل موسى بن نصير على أن يترك فعلا مشروع عبور البرانس والزحف على جنوب أوربا ، هو استدعاء الخليفة الوليد له ، ووصول مغيث الرومى

مندوب الخلافة عائدا من دمشق ، ومعه أمر من الخليفة يطلب فيه من موسى بن نصير وطارق بن زياد الحضور الى مقر الخلافة فـورا .

وتناولت الروايات هـذا الاستدعاء بشتى التفسيرات والأقاويل . ومنها أن السبب فى الحاح الخليفة الوليد على عودة موسى بن نصير الى دمشق ، هـو خوف الخـلافة من استقلال موسى بن نصير بتلك الجهـات النائيـة . ومن ثم رأى الخليفة الوليد أن يقطع السبيل على ما قد يجيش بنفس موسى من مطامح انفصالية ، ويعث اليه يعجل بعودته الى دمشق . غير أن سلوك موسى بن نصير يدحض هـذه الفرية ، اذ كان على اتصال دائم بدمشق ، ينقل الى الخلافة أخبار حملته أولا بأول . أما عن السبب فى تأخيره ابلاغ السلطة المركزية بأنباء تنقلاته فى أول الأمر هو شدة المقاومة التى لقيها من القوط للغدر بالقوات الاسلامية الزاحفة تحت قيادة طارق بن زياد ، وكان عليه المبادرة بتحطيم هذه المخططات . وبذل موسى بن نصير مجهودات شاقة ، حتى استطاع القضاء نهائيـا على قوات القوط . وعندئذ أسرع بارسال سفارة من قبله الى دمشق لتحمل الى الخليفة أنباء هذا النصر المظفر . ثم ان الخليفة الوليد قابل هذه السفارة بالشكر والحمد لله على ما هيـأ للمسلمين من فوز وسـلامة فى تلك الجهـات النائيـة .

ورددت رواية أخرى أن موسى بن نصير تلكأ فى العودة الى دمشق بعد أن وصله طلب الخليفة الوليد على يد مغيث الرومى بايقاف الغـزو والرجوع الى الشـام . والحقيقـة هى أن موسى بن نصير تلكأ فعلا ، وانما لصالح الفتوح الاسلامية فى اسبانيا . اذ جاءه مغيث الرومى ومعـه أمر العودة ، وهو قرب جبال البرت ، اى فى المنطقة الشمالية الوعرة من أرض اسبانيا . ورأى موسى بن نصير بمواهبه الحربية أن سلامة المسلمين فى شمال

اسبانيا ، وبخاصة بعد استيلائهم على طليطلة يتطلب السيطرة على تلك الجهـــات الوعرة فى منطقة قشتالة . ولذا عمد الى استرضاء مغيث الرومى ورجاه أن يؤجل تنفيذ ما لديه من أمر العودة ، وأغراه بأن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التى يفتحها ، كمـا أعطـــاه القصر الفخم الذى يسكنه حاكم قرطبـة . وقبل مغيث الرومى رجاء موسى بن نصير ، الذى بادر من فوره بالزحف على البقية الباقية من شمال اسبانيا ، مستعينا فى ذلك بساعده الأيمن وهو طارق بن زياد . ومن ثم فان تأخير موسى بن نصير فى تلبية نداء الخليفـة جاء نتيجة المقتضيات الحربية ، واتمام سلامة المسلمين فى اسبانيا . ورأى أن يأخذ على عاتقه مغبة هـذا التأخير بشجاعة الجندى ، الحريص على أداء واجبه كاملا .

وتشاء الأقدار الا أن تثبت بمرور الأيام فراسة موسى بن نصير وعلو قدراته الحربية . ذلك أن فلول القوط ، التى لم تستسلم لليـأس فرت أمام زحف المسلمين الى جهـات قشتالة ، حتى انتهى بها المطاف الى جبال أشتورس ، واعتصمت بقممها الشامخة ومفاوزها الصعبة . وبعد أن وصلت القوات الاسلامية الى ثغر خيخون الواقع على خليج غسقونية (بسكويه) ، عادت الى طليطلة تنفيذا لأمر الخليفة ، معتقدة أنها قد أتمت فتح البلاد . ولذا فان عدم اعطاء الفرصة الكافية لموسى بن نصير بالبقاء فى الأندلس ، حرم المسلمين من ادراك خطورة بقايا القوط التى تجمعت فى جبال أشتورس . فكان المسلمون يعتقدون أن تلك البقايا لن تقوم لها قائمة ، وأن عددها فى نظرهم لا يتجاوز الثلاثين رجلا . ولكن عند صخرة فى تلك الأرجاء وهى التى عرفت بصخرة « بلاى » ، أخذت تنمو بذور مقاومة القوط مرة أخرى ، وهى التى ستترعرع فيما بعد وتتطور الى حركة الزحف المسيحى لاخراج المسلمين من الأندلس ، وانتزاع تلك البلاد التى صارت بفضل فتوحات موسى بن نصير تعتبر من الدولة الاسلامية جزءا هاما « أشبه

بالكم من الثوب » على حد قول المؤرخين العرب . وبعبارة أخرى فان استدعاء موسى بن نصير حرم تلك البلاد الاسبانية من خبرة هذا القائد ، الذى لم يكن رجل حرب فحسب ، ولكن رجل ادارة كذلك من الطراز الأول ، وسجل له التاريخ حرصه على أداء واجبه كاملا حتى اللحظة الأخيرة من نشاطه الحربى والسياسى فى أرض اسبانيا .

وتردد رواية أخرى قولها أن السبب فى استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير ليس الخوف من استقلاله بالأندلس ، وانفصاله عن جسد الدولة ، وانما يرجع ذلك الى الخلاف الذى نشب بينه وبين طارق بن زياد ، وما قد يؤدى اليه هذا الخلاف من ضياع قوة المسلمين فى اسبانيا . والمعروف أن الأمر لم يكن أمر خلاف شخصى بين موسى وطارق ، وكذلك لم يكن بينهما شىء من الحسد أو الغيرة . وانما الأمر كان خروج طارق على التعليمات التى كانت لديه واندفاعه وراء القوط يطاردهم الى طايطلة دون أن يدرى بمخططات القوط للغدر به وبقواته . ولقد بذل موسى ابن نصير جهودا جبارة للقضاء على جيوب القوط حتى استطاع أخيرا أن ينجد طارق بن زياد ، وأن يحافظ على سلامة المسلمين . وكان من الطبيعى أن يعنف موسى بن نصير طارقا لخروجه على التعليمات التى لديه ، وأن هذا هو الأسلوب السليم المتبع فى قيادة الحروب . فالمسألة ليست نزهة حربية وانما هو فتح وأرواح جنود عديدة ، فضلا عن امكانية انهيار خطط المسلمين تماما فى اسبانيا فى ذلك الوقت ، نتيجة أى خطأ مهما كان مظهره ، مقصودا كان أم غير مقصود . واشتهر موسى بن نصير بالحزم والصرامة فى تنفيذ الواجب والأوامر ، وهى أشياء وان كانت تثير حنق نفر من الناس الا أنها من ألزم اللزوميات فى ميادين الحروب والغزو . ومن ثم فان ما حدث بينه وبين طارق بن زياد لم يتعد تحقيقا أجراه القائد الأعلى مع قائد أخطأ فى تنفيذ ما كان مكلفا به ،

دون أن ينقص ذلك من قـدر طارق . وليس أدل على ذلك مـن أن موسى بن نصير استأنف مع طارق اكمال فتوح اسبانيا ، وسجلا سويا اسميهما فى صفحات التاريخ باعتبارهما مثلا رائدا للتعاون الحربى بين أبناء الأمة العربية الفتية ، لا فرق بين قائد وآخر ، سواء أكان من المشرق العربى أم من المغرب العربى ، وانما الجميع فى خدمة أمتهم الناهضـة ، وتحقيق رسالتها السامية فى نشر الاسلام فى تلك الجهات الشاسعة من أرض غرب أوربا .

واذا كانت الروايات التى حاولت أن تنسب استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير لا تقدر على الانتقاض من جهاد هذا القائد وتفانيـه فى أداء واجبـه ، فان حقيقة عـودة موسى بن نصير الى دمشق بناء على أمر الخلافة شىء مسلم به تاريخيا ، وشهدت به كل الروايات المعاصرة وغير المعاصرة . وان نظرة الى طبيعـة الفتوح الاسلامية فى اسبانيا خاصة ، والى الفتوح الاسلامية فى شتى الأرجاء اذ ذاك عامـة توضح لنـا السبب الذى من أجله استدعى الخليفة الوليد قائده موسى بن نصير من أقصى الطرف الشمالى لشبه جزيرة أيبيريا ، ثم وقوف تيار الزحف الاسلامى عند تلك الأرجاء النائية . أما من حيث طبيعة الفتوح الاسلامية فى اسـبانيا فان الوضع الحربى بات يتطلب من الخليفة ضبط العجلة الحربية فى تلك الجهات ، والحيلولة بينها وبين الانطلاق المخيف فى جنوب أوربا . اذ لا شك أن الأنباء التى بلغت الخلافة عن مشروع موسى بن نصـير الخاص باختراق جنـوب أوربا والوصول الى دمشق عن طريق الاستيلاء على القسطنطينية ، لا شك أنها أنباء مزعجة ، تستلزم سرعة العمل على تلافيها . هذا فضلا عن أن نصيحة حبيش الشيبانى لموسى بن نصير تؤكد أن خوف الخلافة من تمادى هذا القائد فى مشروعه ليس وهما ، ولـكنه أمر قد يكون وخيم العاقبة . واذا كان حبيش الشيبانى قد أراد أن يكون الناصح الأمين لموسى بن نصير ، حين أعاد الى

ذاكرته رأيه فى عقبة بن نافع الفهرى ، فان الخليفة أراد ألا يلقى موسى نفس مصير عقبة ، وعجل باستدعائه الى دمشق ليحمى قائده ، ويحمى فتوحات المسلمين فى اسبانيا .

ومن ناحيـة أخرى أراد الخليفـة الوليد أن يقف من عجلة الفتوح الاسـلامية فى أوربا موقف الخليفـة عمر بن الخطاب من انطلاق الفتوح فى فارس وما وراءها ، ومن انطلاق معاوية بن أبى سـفيان فى ركوب البحـر وغـزو الروم . اذ دأب قادة المسلمين على دعم فتوحهم وتأمينها ، ثم بناء قاعدة راسخة لهم قبل الانتقال الى ميادين جديدة ، حتى يضمنوا سلامة تلك الفتوح وسلامة جندهم أيضا . فوقف الخليفة عمر بن الخطاب بالمرصاد لكل قائد حربى يتمادى فى تنفيذ نشاطه الحربى ، ولا يسمح له بالانتقال من جبهة الى أخرى الا بعد سلامة القواعد الأولى . فلم يسمح لمعاوية بن أبى سفيان مثلا بركوب البحر والقيام بغزوات بحرية لأن الفتوح البرية لم تستقر بعـد . وظلت هذه الحكمة الحربية التى سنها عمر بن الخطاب قاعدة التزم بها من جاء بعده من الخلفـاء . فلم يبـدأ المسلمون فتح بلاد العرب الا بعد دعم أحوال مصر ، التى صارت القاعدة لخروج الجيوش الاسلامية للجهات المغربية . ولم توافق السلطات الاسلامية على غزو الأندلس الا بعد أن نجح موسى بن نصير نفسه فى تحويل القيروان وتونس وسبته الى قواعد تزود المسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا بالعدة والعتاد ، وتحمى ظهورهم وتقدمهم فى نفس الوقت . ومن ثم خشى الخليفة الوليد أن يبادر موسى بن نصير الى اختراق جنوب أوربا قبل أن يجعل من اسبانيا قاعدة راسخة لفتوحه ، فيعرض جنده ونفسه للهلاك ، ويطيح بجهـاد المسلمين فى شبه جـزيرة ايبيريا . ولما كان تفكير الخلافة فى دمشق ، باعتبارها بعيدة عن مسرح الأحداث أهدأ وأسلم ، فقد عجل الخليفة الوليد باستدعاء موسى بن نصير ، وليجنبه التردى فى أشباه العاقبة التى تردى فيها عقبة بن نافع الفهرى .

ومن ناحية أخرى فان استعراض الفتوح الاسلامية عامة ، شرقا وغربا على عهد الخليفة الوليد ، يبرر استدعاء موسى بن نصير الى دمشق ، والالحاح على عودته سريعا . ذلك أن عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك اتسم بقيام حركة فتوح كبرى فى شرق الدولة وغربها . وانطلقت عجلة الفتوح فى كل مكان انطلاقا سريعا ومظفرا ، وبصورة تدعو الى الاعجاب والانتباه فى الوقت نفسه . ففى شرق الدولة تولى الاشراف على الفتوحات قائد يشبه موسى بن نصير فى شجاعته وجراته وحزمه وهو الحجاج بن يوسف الثقفى . اذ انتقى هيئة من المستشارين الحربيين ، ممن يتمتعون بدرجة عالية من الكفاية ، ويعث بهم الى شرق الدولة وتوسيع ارجائها فى تلك النواحى ، ونشر الاسلام بها . وبدا أن هناك نوعا من التسابق بين الحجاج وموسى بن نصير ، الأول يعمل على مد الجناح الأيمن للدولة ، والثانى يعمل على بناء الجناح الأيسر للدولة .

وانتدب الحجاج اثنين من قادته المشاهير لأداء المهمة الكبرى فى المشرق : أولهما مسلم بن قتيبة الباهلى ، والثانى محمد ابن القاسم الثقفى . واتجه الأول لفتح بلاد ما وراء النهر ، وهى الجهات التى تقع شمال نهر جيحون (نهر آموداراايا الآن) . وجعل هذا القائد من مدينة مرو عاصمة خراسان قاعدة لعملياته الحربية فى تلك الجهات الشاسعة . واتسمت بلاد ما وراء النهر بما اتسمت به بلاد المغرب والأندلس بوجود عناصر بشرية جديدة على المسلمين ، كانت اشبها جماعات من الأتراك . واستطاع القائد مسلم بن قتيبة بسط فتوحاته على جميع بلاد ما وراء النهر ، ودخل بلاد طوران ، أى بلاد الأتراك ، ونشر الدين الاسلامى بين هذا العنصر البشرى ، الذى سوف يلعب فيما بعد أخطر الأدوار فى تاريخ الخلافة الاسلامية (من حيث اضعاف هيبتها ، ثم القضاء على كيانها آخر الأمر) . وبلغت فتوح هذا القائد

أوجهـا في الوقت الذى كان فيه موسى بن نصير قد أتم فتح الأندلس .

وفي الوقت الذى زحف فيه قتيبة على بلاد ما وراء النهر بعث الحجاج بجيش آخر يقوده صهره محمـد بن القاسم الثقفى لفتح بلاد السند كذلك . والتقى المسلمون فى تلك الجهات بالهنود ووقفوا على معـارفهم القديمة ، وبدأ اقليم البنجاب من أرض الهند يدخل فى التبعية للمسلمين . وكان من المصادفات العجيبة كذلك أن يدخل محمد بن القاسم الثقفى عاصمة البنجاب ، وهى مدينة الملتان سنة ٩٥ هـ/ ٧١٣ م ، وهى السنة التى أتم فيها أيضا موسى بن نصير فتح اسبانيا ، وصارت بلاد الهند الشمالية بدورها تشهد تطورا هاما فى تاريخها بفضـل دخول الاسلام اليهـا .

وان نظرة الى هذا العرض السريع للفتوح الاسلامية فى مشرق الدولة الاسلامية يوضح فى جلاء أن الخريطة السياسية للعالم الاسلامى بدأت تتسع ، وامتدت الى بيئات جغرافية وعناصر بشرية جديدة ، تطلب من الخلافة تنظيما خاصا وتدبيرا محكما . وان نظرة أيضا الى ما تم من فتوح على يد موسى بن نصير تكشف فى روعة خلابة عن النمو السريع للدولة الاسلامية فى المغرب ، واحتوائها على بيئات جغرافية وعناصر بشرية جديدة كل الجدة على العرب الفاتحين . وبات الموقف السياسى والادارى للدولة الاسلامية يفرض على الخلافة استدعاء أولئك القادة للافادة من خبراتهم ومشاهداتهم من أجل رسم أمثل السبل للسير بهذا الامتداد الشاسع نحو السلامة والطمأنينة .

وألقت المقادير على الوليد بن عبد الملك شرف اقتران تلك الفتوح الرائعة باسمه وعهده . فكانت أنباء النصر تتوالى عليه من كل مكان : من موسى بن نصير فى المغرب ، ومسلم بن قتيبة ومحمد بن القـاسم فى المشرق ، فيقابلها بالسجود وشـكر الله ،

حتى أنه لم يكد يفرغ من صلاة شكر الله ، حتى يستهل صلاة شكر أخرى لتلاحق أنباء الفوز والنصر . وذكرت احدى الروايات ان الوليد استقبل رسولا من عند موسى بن نصير فقال له : ما وراءك ؟ . « فقال ، كل ما تحب يا أمير المؤمنين ، تركت موسى بن نصير فى الأندلس ، وقد أوفدنى الى أمير المؤمنين فى نفر من وجوه من معه بفتح من فتوحه » . فأخذ الوليد الكتاب الذى بعث به موسى بن نصير وقرأه ، ولما أتى على آخره خر ساجدا . وما كاد الوليد يرفع رأسه حتى آتاه نبأ فتح آخر فخر أيضا ساجدا ، ثم رفع رأسه فأتاه آخر بفتح جديد ، وخر الوليد ساجدا ، حتى قال شاهد العيان لهذه الحادثة : « ظننت أنه لا يرفع رأسه . »

وكانت هذه الفتوح العظيمة فى الشرق والمغرب ، ووقوعها فى وقت واحد سببا فى اظهار شخصية موسى بن نصير ، وعلو اسمه على أسماء أقرانه من قادة تلك الفتوح . اذ تحدثت الركبان بأنباء كل فتح من الفتوح التى قام بها هذا القائد أو ذاك ، كما رددت أخبار البلاد التى دخلوها ، وما امتلأت به من غرائب ، وما حفلت به من مظاهر الثراء . وصاحب ذلك بالتالى الموازنة بين تلك الفتوح ، والاشادة بكل منها حسبما جلبته معها من مغانم وثروات . ونالت فتوح موسى بن نصير ليست المكانة الأولى فحسب بالموازنة بينها وبين الفتوح المعاصرة لها ، بل وبموازنتها أيضا بالفتوح الأولى التى قام بها المسلمون أيام الخلفاء الراشدين . اذ وجد المسلمون فى اقليم البنجاب بالهند الكثير من الكنوز فى المعابد الهندية البوذية ، وكذلك فى بعض مدن بلاد ما وراء النهر . ولكن أنباء تلك الكنوز لم تتعد بعض الجواهر أو الأحجار الكريمة الموجودة فى خزائن المعابد ، أو المعلقة على بعض التماثيل الكبيرة ذات المكانة العالية فى معبودات الديانة البوذية .

ولم تلبث أخبار تلك المغانم أن تضاءلت أمام الفيض العظيم

من الكنوز التى وجدها موسى بن نصير فى الأندلس ، وعما أصابه المسلمون هناك من مغانم أعادت الى الأذهان غنائم العرب فى بلاد فارس . فقد نالت فتوح فارس مكانة عالية ، ورددت عنها الروايات الشيء الكثير التى تبين دهشة العرب الفاتحين مما وجدوه فى ايوان كسرى من طنافس فاخرة وأحجار كريمة ، فضلا عن الكثير من مظاهر الترف التى لم يألفوها من قبل فى بيئتهم الصحراوية بشبه جزيرة العرب . ولذا كان موقف العرب الفاتحين من كنوز فارس موقف الاعجاب والدهشة فى آن واحد .

وأعادت فتوحات موسى بن نصير فى الأندلس ، وما حصل عليه من مغانم هناك ، ذكرى تلك الأيام الأولى للفتوح العربية فى فى فارس . اذ وجد الفاتحون فى كل مدن الأندلس من مظاهر الغنى والترف ما أدهش العقول ، وجعل الروايات عن تلك المغانم أشبه بالأساطير ، وغطت سحرها وروعتها أنباء المغانم المعاصرة لها فى المشرق والتى وقعت فى حوزة العرب كذلك أيام فتح فارس . فقالت احدى الروايات : « لقد كانت الدابة تطلع فى غزوات موسى فينظر فى حافرها ، فيوجد فيه مسامير الذهب والفضة . »

وترجع كثرة المغانم الى وفرة الثراء الذى تجمع لمدن القوط ، وخاصة فى العاصمة طليطلة . فوجد المسلمون فى تلك المدينة بعد فتحها « من الذخائر والأموال مالا يحصى . فمن ذلك مائة وسبعون تاجا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة . ووجد فيها ألف سيف مملوكى ، ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ، ومن أوانى الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف . »

على أن أعظم غنائم طليطلة كانت « مائدة سليمان » ، وهى بالطبع ليست مائدة سليمان ابن داوود عليه السلام ، وانما نسبتها بعض الروايات الى سليمان كناية عن قدمها وعظم شأنها .

وقد اختلفت الروايات كذلك فى وصف هذه المائدة ، وبيان هيئتها وسبب وجودها . فذكرت احدى الروايات أن الأغنياء والموسرين من القوط دابوا أن يوصوا للكنائس بقدر معلوم من ثرواتهم عند الوفاة ، وكلما تجمع المال الوفير بيد المشرفين على تلك الكنائس ، أمروا بصناعته موائد وكراسى من الذهب والفضة تضع القساوسة عليها الأناجيل فى أيام الاحتفالات ، من أجل المباهاة والتفاخر .

ونالت كنيسة طليطلة قدرا كبيرا من مال الوصايا ، وخاصة أنها كانت مقر البيت المالك . ولذا تأنق الملوك فى عمل مائدة لهذه الكنيسة فاقت كل الموائد فى سائر كنائس اسبانيا . اذ حرص كل ملك على أن يزيد فى مائدة كنيسة طليطلة ، اعلاء لذكره وتباهيا بعاصمة ملكه ، حتى صار لها مركز الصدارة فى جميع البلاد ، وتحدث الجميع بجمالها وعلو قيمتها . فكانت « مصنوعة من الذهب الخالص ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد ، وقيل انها من زبرجدة خضراء ، حافتها وأرجلها منها ، وكان لها ثلثمائة وخمس وستون رجلا . » وأشادت احدى الروايات بجمال هذه المائدة أيضا ، ووصفتها بأنها « كانت مائدة خوان ، ليست لها أرجل ، قاعدتها منها ، وكانت من ذهب وفضة خليطين ، فهى تتلون صفرة وبياضا ، مطوقة بثلاثة أطواق ، طوق لؤلؤ ، وطوق ياقوت ، وطوق من زمرد .

ومهما يكن من أمر تلك الروايات ، ومهما يكن الاختلاف فيما بينها حول وصف تلك المائدة ، فمما لا شك فيه أنها أجمعت على شىء واحـــد هو عظمة هذا الكنز الثمين ، الذى فاقت أخباره ما عداه من كنوز وجدها الفاتحون فى سائر مدن الأندلس . ويرجح أن هذه المائدة كانت مذبح الكنيسة الجامعة فى طليطلة ، وأنها كانت على درجة خيالية من الجمال حتى تليق بعاصمة القوط ، ولتكون رمزا على ثراء دولتهم وغناها الوافر .

والى جانب غنائم طليطلة استمرت الروايات فى فيض أخبارها عن كنوز الأندلس . فأشارت احدى تلك الروايات الى أن المسلمين حين دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير ، أدهشهم ما وجدوه من مغانم ، وأن كثيرا منها وقع فى أيديهم بمحض الصدفة وتقدير المقادير . ففى احدى المدن أراد الجند ضرب أوتاد فى حائط احدى المبانى لخيولهم ، فلم تندفع الأوتاد . وسرعان ما أذهلهم أن السبب فى ذلك هو وجود صفائح من الذهب والفضة خلف بلاط الرخام فى الجدران . ومن ثم وقع فى يد الجند هذا الكنز الثمين .

وذكرت رواية أخرى أن رجلا جاء الى موسى بن نصير وقال له : ابعث الى نفرا من رجالك لأدلهم على كنز ، وأجابه موسى الى طلبه . وعندما وصل الرجال الى المكان ووجدوا الكنز ، وارادوا رفع الغطاء « سال عليهم من الزبرجد والياقوت ما لم يروا مثله قط » ، ولم يستطيعوا حمل الكنز ، ورأوا أن موسى ابن نصير لن يصدقهم اذا أخبروه بذلك ، واكتفوا بأن بعثوا فى استدعائه هو شخصيا ليرى الكنز ، وليتلقوا أوامره بشأنه . وعلى هذا النحو سارت القوات الاسلامية فى الأندلس ، وهى تجد من الكنوز والمغانم ما أذهل الرواة ، وأعاد الى ذاكرتهم فتح فارس . ومن اشباه هذه الذكريات مارددته احدى الروايات عن أن رجلين من جند المسلمين فى الأندلس وجدا « طنفسة منسوجة بالذهب والفضة والجوهر والياقوت . فلما اثقلتهما أنزلاها ، ثم حملا عليها بالفأس فقطعاها نصفين ، فأخذا نصفا وتركا الآخر . » ومما زاد فى العجب والدهشة أن الناس كانوا يمرون يمينا وشمالا فلا يلتفتون الى هذا النصف الغالى من الطنفسة « استغناء عنها بما هو أنفس منها وأرفع » .

وهكذا تجمع فى أيدى المسلمين من كنوز الأندلس ومغانمها ما جعل موكب النصر الذى بدأ يعده موسى بن نصير ، وهو فى

طريق العودة الى الشام ، حديث الركبان ، وميدانا خصبا للرواة والقصاص . وكان موسى بن نصير قد أخذ فى الاعداد للعودة فى أواخر سنة ٩٥ هـ/ منتصف صيف سنة ٧١٤ م ، بعد أن انتهى هو وطارق بن زياد من السيطرة على الجهات الجبلية الشمالية من اسبانيا . وحرص موسى بن نصير على أن يجعل موكبه أفخم وأبهى موكب عرفه التاريخ الاسلامى . فضم اليه « أبناء الملوك من الافرنج بالتيجان ، والمائدة والآنية من الذهب والفضة والوصفاء والوصائف ، ومالا يحصى من الجوهر والطرائف . » وكانت المائدة بدورها تحتل مركز الصدارة فى موكب النصر ، واحتاجت الى ترتيب خاص لنقلهـا . وانتقى موسى بن نصير دابة من أجود الدواب ، وأمر بأن تحمل عليها المائدة ، ولكن الدابة ناءت بهذا الحمل الثقيل ، مما اضطر موسى بن نصير الى اعداد العدة لنقل هذا الكنز الثمين وغيره من الكنوز ، وبخاصة أن الطريق أمامه الى دمشق شاق وطويل .

وأمر موسى بن نصير بصناعة « العجل » لنقل كنوز الأندلس ، « فعملت ثلاثة ومائة عجلة ، ثم حمل عليـه الذهب والفضـة الجواهر واصناف الوشى الأندلسى » . وسار موسى بن نصير موكب النصر الرائع عائدا من شمال اسبانيا ، فمر بطليطلة دون أن ينتظر بها طويلا ، ثم دخل قرطبة ، ولقى فيها كبار رجال الحامية الاسلامية ، ونظم أحوالها . ثم مضى الى اشبيلية ، وهناك جعل ابنه عبد العزيز واليا على البلاد ، قبل أن يبحر من هذا الميناء ، امعانا منه فى ضبط ادارة اسبانيا ، وحرصا على سلامة الجند الاسلامى فى هذا القطر النائى .

واخيرا ابحر موسى بن نصير ، ومعه موكب النصر من أشبيلية فى ذى الحجة سنة ٩٥ هـ مكللا بأكاليل المجد والفخار . لقد أدار موسى بن نصير فى جهد متصل ، دام أربع سنوات الا شهرا تقريبا اعظم عمليـات الفتوح العربية . اذ بدأ الفتح الاسلامى لاسبانيا

فى رجب سنة ٩٢ هـ ، وها هو ذا موسى بن نصير يغـادر البـلاد فى ذى الحجة سنة ٩٥ هـ ، أتم خلالها فتح شبه جزيرة أيبيريا ، تلك الجزيرة الكبيرة ، وبسط سلطان المسلمين عليها من أقصى الجنوب الى جبال البرت وشاطىء البحر فى الشمال ، ومن مالقة وطركونة فى الشرق الى قلمرية واشبونة فى الغرب ، وسيطرت جيوش موسى بن نصير وسط هذا الامتداد الجغرافى الشاسع على سهول الجنوب وعلى مرتفعات قشتاله ونواحى استرامادوره .
ولم يترك موسى ابن نصـير بلدا كبيرا فى اسبانيا أو حصنا هاما الا ورفع عليه راية الاسلام ، وضمه الى رقعة الدولة الاسلامية . ان موسى بن نصير ، وهو يغادر أشبيلية أتم فتحا مبينا فى مدة قصيرة لا يمكن أن يصدقها العقل لولا ثبوت البراهين وشواهد التاريخ . وترك فى اسبانيا ، ذلك القطـر الفسيح الذى سبق أن استعصى أمره على كبار الفاتحين القدامى ، ادارة اسلامية ثابتة الأركان ، قوية الأوتاد .

وعبر موسى بن نصير البحر من أشبيلية الى افريقية ، ومعـه موكب النصر ، كأنما أراد أن يثبت للبربر ، باصـطحابه طارق ابن زياد ، ان لهم قدرا عظيما فيما أفاء الله على الاسلام فى غرب أوربا من نصر عظيم . ثم ان موسى حرص على أن يسير الى جانب طارق بن زياد خطوة خطوة الى الشـام ليطلع المشرق العربى على صفحات رائعة من أمجاد شقيقه المغرب العربى من أجل نصرة الاسلام ورفع رايته . فحياة طارق بن زياد وأعماله فى اسبانيا تمثل سرا من أسرار قوة الاسلام ، وناحية من نواحى امتيازه ، وهى كلها أمور استطاع موسى بن نصير أن يتيح لها أسباب المجد والانطلاق . فموسى بن نصـير ، هو الذى جعل من أحد أبناء المغرب العربى ، وهو طارق بن زياد « قائدا فاتحا ، وسياسيا محنكا يقود الجيوش ويفتح الأمصار ، ويوقع المعاهدات فى قدرة

وكياسة جديرتين بالاعجاب » (١) ، وهيأ لهذا القائد المغربى أن يصبح خير طليعة لوطنه وجهاده فى سبيل اعزاز الاسلام .

ولم ينس موسى بن نصير وسط زهو النصر تنظيم شئون المغرب كذلك ، وخاصة أنه على وشك السفر الى مكان بعيد عنه فى دمشق . فعين ابنه عبد الله على « افريقية » وطنجة والسوس ، حتى يستطيع الاشراف على هذا القطر الشاسع ، ويهيىء للمغرب واسبانيا أسباب التعاون من أجل بناء الحضارة العربية الاسلامية . ذلك أن تشابه الادارة ووضعها بيد أشخاص متفاهمين خير سبيل للاستقرار ، ثم الامتزاج ، وبناء وحدة قوية راسخة الأوتاد مدعمة الكيان .

وازداد موكب النصر بهاء وروعة فى القيروان ، اذ ضم موسى ابن نصير اليه مائة رجل من أشرف الناس من قريش والأنصار ، وسائر العرب الذين أسهموا فى فتح المغرب ، منهم عياض بن عقبة وعبد الجبار بن أبى سلمه بن عبد الرحمن بن عوف . واصطحب موسى بن نصير أيضا نفرا من كبار رجال البربر ، منهم بنو كسيلة وملك السوس وملك قلعة أرسوف هذا فضلا عن هدايا من خيرات كل بلد من البلاد التى فتحها ، وبعض ما فيها أيضا من تحف وطرائف .

واتجه موسى بن نصير الى مصر ، القاعدة الأولى لفتوح المغرب والأندلس ، والتى تربى فيها عسكريا وسياسيا ، وعاش فى كنف واليها عبد العزيز بن مروان ونعم برعايته وحمايته . ولم تنس السلطات العربية فى مصر بدورها الترحيب بهذا القائد المظفر ، وبخاصة أن الخليفة الوليد أمر بأن يوضع تحت تصرف موسى ابن نصير كل شيء يطلبه ، ولا يمنع له رجاء طيلة اقامته فى البلاد . وعندما اقترب موكب النصر من عاصمة البلاد ، خرج الوالى

---

(١) حسين مؤنس : فجر الأندلس .

لاستقبال موسى بن نصير ، الذى بدا فى أوج مجده وأبهى زينته .
اذ حين اقترب الوالى منه ، قال له موسى : من أنت يابن أخى .
فانتسب له الوالى ، على العادة العربية من حيث الاعتزاز بالآباء
والأجداد . وعندئذ قال له موسى بن نصير : مرحبا وأهلا .

وبالغ موسى بن نصير وهو فى مصر فى اغـداق المنح والعطايا
والهدايا على الذين خرجوا لاستقباله من كبار رجال الدولة .
وخص أبنـاء عبد العزيز بن مروان ، صـاحب نعمتـه بالكرم
الحاتمى . فذهب اليهم بنفسه مسلما ومعترفا بما سبق أن ناله
من تقدير على يد والدهم ، والى مصر الأسبق . وأقام موسى
« ثلاثة أيام يأتيـه أهـل مصر فى كل يوم ، فلم يبق شريف
الا وقد أوصل اليه موسى صلة ومعروفا كثيرا » . وظلت ذكرى
موكب النصر الذى خرج على رأسه موسى بن نصير عالقة فى أذهان
المعاصرين فى مصر لمدة طويلة ، ونقلوا الى أعقابهم ما شاهدوه من
روعة هذا الموكب وثرائه العظيم . وغدت هـذه الأوصـاف مادة
خصبة لخيال القصاص والرواة فى مصر لمدة طويلة لمدى قرن
تقريبا ، بعد أن غادرها هذا الموكب الحافل .

واتجه موسى بن نصير بعد ذلك نحو فلسطين ، ولقى هنـاك
الكثير من الترحيب الحار ، والاستقبال الحسن . وممن اشتهر
بالخروج لاستقبال هذا الموكب والحفاوة به آل روح بن زنباع .
فقد نزل عندهم موسى بن نصير فى أثناء اقامته بفلسطين ، وهو
معزز مكرم . فنحروا له خمسين جزورا فى يومين ، دلالة على
تقديرهم له ولموكبه . ولم ينس موسى بن نصير بدوره أن يغدق
عليهم الكثير من الهـدايا ، وعلى غـيرهم من الأسر الـكبيرة فى
فلسطين . وترك موسى بن نصير نفرا من آل بيته عند أسرة روح
ابن زنباغ استعدادا لدخول دمشق ، وليتفرغ لاعداد موكب
النصر بالصورة التى تليق بعاصمة الخلافة ، وليجعل منه نموذجا

يشهد فيـــه الناس جهاد المسلمين فى المغرب وفى غرب أوربا ، وماأفاء الله على المسلمين فى تلك الجهات من نصر مبين .

وعنـــدما اقترب موكب النصر من دمشق وصل الى موسى ابن نصير رسالتان كان لهما أكبر الأثر فى اختتام حياته فيما بعد . أما الرسالة الأولى فكانت من ولى العهد سليمان بن عبد الملك يطلب فيها من موسى بن نصير أن يبطىء فى الحضور الى دمشق لأن الخليفة الوليد مريض مرض الموت ، وفى أيامه الأخيرة ، وبذلك يحظى سليمان عندما يعتلى العرش باستقبال أعظم موكب للنصر عرفه الاســـلام . ولكن موسى بن نصـــير رفض الاستجابة لهذا الطلب ، وتابع سيره الى دمشق . وبعد ذلك بقليل تسلم الرسالة الثانية ، وكانت من عند الخليفة الوليد نفسه يأمره فيها بالاسراع بالحضور الى دمشق حتى لا تحرمه المنية من شرف مشاهدة موكب النصر القادم على عاصمة الخلافة ، وليتوج أيامه الأخيرة بهذا النصر المظفر .

ودخل موكب النصر دمشـــــق فى الســـادس عشر من يناير سنة ٧١٥ م ، اى قبل وفاة الخليفة الوليد بأربعين يوما ، وأذهل النـــاس بما حمله من الخـــيرات والمغانم . وتحدد يوم الجمعـــة لاستقبال الخليفة لهذا الموكب فى المسجد . وحرص موسى على أن يشرف بنفسه على طريقة سير الموكب ، وارتداء المشتركين فيه لثيابهم ، ولطريقة عرض الكنوز والمغانم . وكان موسى بن نصير يحب الأبهة والزينة ، حتى أثر عنه أنه كان يســـتعمل الخضاب للحيته البيضاء ، كى يبدو وسيما قسيما بهى الطلعة . فأمر أن يلبس كل فرد من المشتركين فى الموكب من كبار أبناء البلاد الذين صحبهم معه الثياب الخاصة بهم ، والتى تمثل أوطانهم . وقد روت المراجع أنه اصطحب معه من الأندلس وحدها ثلاثين ألف شخص ، وهذا طبعا عدد مبالغ فيه ، ولا يمكن قبوله ، لاستحالة الاشراف

على مثل هذا العدد الضخم ، وبخاصة عبر طريق طويل وشاق من الأندلس الى دمشق .

والمعقول ، كما أشارت بعض الروايات أيضا ، أن موسى بن نصير اصطحب معه ثلاثين شخصا فقط من كبار رجال دوله القوط ، الى جانب نفر من أشراف البلاد التى دخلها فى المغرب . فألبس رجال القوط التيجان ، كما جعلهم يرتدون ثياب الملك ، وكذلك جعل أبناء البربر يلبسون ملابسهم الوطنية الجميلة ، وكذلك أمر أبناء ملوك الجزائر التى استولى عليها فى بحر الروم (البحر المتوسط) ، وخاصة أبناء جزر ميورقة ومنورقة ، بأن يلبسوا التيجان وأبهى الثياب . وارتدى أشراف العرب الذين اشتركوا فى هذا الموكب أيضا ثيابهم العربية الجميلة ، حتى صار الموكب الذى أعده موسى بن نصير يمثل عرضا تاريخيا رائعا لامتداد الاسلام وسط شعوب وأمم عديدة ، من قلب الجزيرة العربية الى المغرب الأقصى وغرب أوربا .

وأمر موسى بن نصير « بالأموال والجواهر ، واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع والوطاء والكساء المنسوج بالذهب والفضة المحرشة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وضمها الى موكب النصر ، مع رجاله بأرديتهم الجميلة المتعددة الزاهية . ثم اقبل موسى بالذين البسهم التيجان حتى دخل مسجد دمشق ، والوليد على المنبر يحمد الله » . وكان الخليفة يعانى فى تلك الأيام من وطأة مرض الموت ، ومع ذلك أبى الا أن يخرج الى المسجد « متحملا ، لأجل قدوم موسى ومن معه » .

ولما رأى الخليفة هذا الموكب استولت عليه الدهشة ، والعجب الشديد ، وصاح الحاضرون من الناس هاتفين « موسى ، موسى » . وأقبل هذا القائد المظفر حتى سلم على الخليفة ، ووقف الثلاثون رجلا من أصحاب التيجان فى موكب النصر عن يمين المنبر وشماله ، على حين وقف أمام الخليفة سائر افراد الموكب

ومراكب الغنائم . وهز هذا المنظر الباهر قلوب الحاضرين ومشاعرهم ، كما أثار ذكرياتهم عن فتوح المسلمين الكبرى ، وقالوا : ان الدولة الاسلامية لم تشهد منذ فتح فارس مثل هذا الموكب الرائع ، ومثل تلك الغنائم الوافرة .

واخذ الخليفة الوليد يلقى خطبته فى هذا المشهد الحافل ، وأكثر فيها الحمد لله والثناء عليه ، والشكر لما أيده الله ونصره . وطالت خطبة الخليفة ، ولكن لم يتمكن الحاضرون من سماعها جيدا بسبب مرضه . ومهما يكن من أمر فان الروايات أجمعت على شدة فرح الخليفة ، وأنه أطال فى خطبته ، حتى « فات وقت الجمعة » . ثم صلى بالناس وأدى فريضة هذا اليوم المبارك المشرق فى تاريخ العروبة والاسلام .

وجلس الخليفة بعد الصلاة ليستقبل الفاتح المظفر ورجاله . « فدعا بموسى فصب عليه الوليد الخلع ثلاث مرات ، وأجازه بخمسين ألف دينار ، وفرض لولده جميعا فى الشرف ، وفرض لخمسمائة من مواليه » . وكان هذا التكريم العلنى من الخليفة لموسى وآل بيته اعترافا رسميا بما قدمه هذا القائد وأبناؤه من خدمات جليلة للدولة العربية الاسلامية . ثم أن اغداق الخلع على موسى ثلاث مرات كان تشريفا لم يحظ به قائد من قادة الفتوح ، وبخاصة فى الدولة الأموية . وفى الوقت نفسه لم يكن فى هذا العمل من جانب الخلافة أى استثناء أومبالغة لا يستحقها موسى بن نصير . اذ تمكن هذا القائد وأبناؤه من رفع راية الجهاد ، ونشر الاسلام فى رقعة شاسعة ، امتدت من حدود مصر شرقا الى المغرب الأقصى ، ثم الى أرجاء غرب أوربا ، دون أن يتعرض المسلمون لأى خطر أو كوارث . فكان موسى ابن نصير يتقدم الصفوف ، ولا يضن بولده فى الحروب ، حتى كتب لآل بيته صفحة مجيدة فى تاريخ الفن الحربى الاسلامى ، وتطوره فى القرن الأول الهجرى .

ولما انتهى الخليفة من منح موسى براءات الشرف والتكريم ، استأذن منه هذا القائد العظيم فى تقديم المشتركين معه فى موكب النصر . فأدخل عليه « موسى ملوك البربر وملوك الروم وملوك الاسبان وملوك افرنجة . ثم أدخل عليه رؤوس البلاد ممن كان معه من قريش والعرب . » فأحسن الخليفة لهم العطايا والمنح ، و « فرض لهم فى الشرف » . وهذه العبارة الأخيرة تحمل معنى يشبه فى لغة « البروتوكول فى العصر الحاضر » المكانة الممتازة فى المجتمع . فكان من أهم مميزات « من فرض له فى الشرف » ، الا يقوم من مجلسه اذا دخل عليه أحد من الحكام ، دلالة على علو مكانته الاجتماعية ، واحتراما له من قبل السلطات الحاكمة أمام الناس .

وبانتهاء يوم الاستقبال اختتم موسى بن نصير حياته العامة ، ذلك أن الوليد بن عبد الملك توفى بعد ذلك اليوم بأربعين يوما فقط ، وخلفه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ / ٧١٥ م . وأعفى الخليفة الجديد ، غداة توليه العرش موسى بن نصير ، وكان اذ ذاك قد ناهز الثمانين من عمره من العودة الى الأندلس . وظل سليمان مع ذلك حريصا على الافادة من خبرة موسى بن نصير الحربية ، واعتبره من كبار مستشارى الدولة الاسلامية . فعندما صمم هذا الخليفة على ارسال حملة لحصار القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة سنة ٩٨ هـ/ ٧١٧ م دعا موسى بن نصير لاستطلاع رأيه ، وقال له : أشر على يا موسى ، فلم تزل مبارك الغزوة فى سبيل الله ، بعيد الأثر طويل الجهاد . فقال موسى : أرى يا أمير المؤمنين أن يعمد مسلمة الى جيشه فيقسمه قسمين ، يخصص أحدهما لحراسة المعاقل التى يستولى عليها فى طريقه للقسطنطينية ، ويكرس القسم الثانى لحصار عاصمة الروم ، وبذلك يأمن عادية الطريق ، أو التعرض للهجمات الفجائية .

وحرص الخليفة سليمان أيضا على أن يقضى مع موسى الساعات الطوال يسأله عن أحوال الجهات الغربية من الدولة ، وما شاهده من أحوال سكانها . وقد دارت بينهما هذه المناقشة الطريفة :

قال الخليفة : يا موسى أخبرنى عن الروم ؟ .

قال موسى : أسود فى حصونهم ، عقب على خيولهم ، نساء فى مواكبهم ، لا يرون عارا فى هزيمة تكون لهم منجاة .

قال الخليفة : أخبرنى عن البربر ؟ .

قال موسى : هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب ، لقاء نجدة وصبرا وفروسية وسماحة وبادية .

قال الخليفة : أخبرنى عن الاسبان ؟ .

قال موسى : ملوك مترفون ، وفرسان لا يجبنون .

قال الخليفة : أخبرنى عن الافرنج ؟ .

قال موسى : هناك يا امير المؤمنين العدد والعدة ، والجلد والشدة ، وبين ذلك أمم كثيرة ... وكل قد لقيت بشكله ، فمنهم المصالح ، ومنهم المحارب المقهور ، والعزيز البذوخ .

وأراد الخليفة سليمان أن يختم حياته بالحج الى بيت الله الحرام ، واصطحب معه الى مكة والمدينة المنورة موسى بن نصير ، وظلا طوال الطريق يتشاوران فى مهام الدولة ويتدارسان احوالها. وفى أرض الحجاز بدأت الذكريات تلاحق موسى بن نصير ، وتعيد اليه صورة الماضى المجيد فى أرض المغرب والأندلس . وتذكر موسى ضمن ما تذكره من احداث هذه الأيام الحافلة حادثة

وقعت له ، عقب فتح احدى المدن الاسبانية . ان علم اذ ذاك أن من بين أسرى القوط شخص له علم بالنجوم . فاستدعاه موسى ، وكان أمامه عصفور مذبوح ، فأدخل الرجل يده في جوف العصفور ، وحركه طويلا ، ثم قال للترجمان بلسانه ؟ انه لن يموت هنا ولكن يموت بالمشرق ، في بلاد العرب . وأمر موسى بطرد ذلك الأسير . ولكنه الآن ، وهو في المدينة المنورة ، تذكر تلك الحادثة ، وأحس بدنو اجله ، وقال موسى لبعض من يثق به : ليموتن بعد يومين رجل بلغ ذكره المشرق والمغرب ، وظن السامع أنه يعني الخليفة . ولكن لم يلبث السـامع أن وصلت الى آذانه ضـجة عالية انطلقت من مسجد رسول الله ، صلى الله عليـه وسلم ـ والناس يقولون : مات موسى بن نصير .

وهكذا شاءت الأقدار أن تتحقق نبوءة أسير القوط ، ودفن موسى بن نصير في مسقط رأسه في « وادى القرى » ، بعد أن قطع رحلة الحياة ، ربط فيها المشرق العربي بالمغرب العربي ؛ وخلف للأمة العربية وطنا شاسعا ، شامخ البناء .

المراجع

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (بولاق) .
أسد الغابة (١٢٨٠ هـ) .

ارســــلان : الحلل السندسية (١٩٣٦) .

البكرى : المغرب فى ذكر افريقية والمغرب (١٩١١) .

البـــلاذرى : فتوح البلدان (١٩٠٠) .

حسن حسنى : جزيرة قوصرة (المجلة التاريخية ١٩٤٦) .

حسن محمود : قيام دلة المرابطين (١٩٥٧) .

حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (١٩٤٧)
فجر الأندلس (١٩٥٩) .

سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى (١٩٦٥) .

الســـلاوى : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى (١٨٠٤) .

السيد عبد العزيز ســــالم : المغرب الكبير (العصر الاسلامى) — (١٩٦٦) .

الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس (١٨٨٤) .

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب (ليدن ١٩٢٠) .

ابن عبد ربه : العقد الفريد .

عبد العزيز / حافظ دنيا : موسى بن نصير (الدار القومية) .

العدوى : الأساطيل العربية (١٩٥٧) .

ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب (ليدن) .

عنان : دولة الاسلام فى الأندلس (١٩٤٣) .
الآثار الأندلسية (١٩٥٦) .

ابن قتيبة : الامامة والسياسة (١٩٠٤) .

الكندى : ولاة مصر وقضاتها (ليدن) .

المالكى : رياض النفوس (نشرة حسين مؤنس) .

محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير .

محمد عبدالغنى حسن : موسى بن نصير .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (١٩٢٨) .

المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١٨٥٥) .

النويرى : نهاية الأرب .

ياقوت : معجم البلدان .

الفهرس

صفحة

الفصل الأول	: مؤهلات القادة العرب	٥
الفصل الثانى	: أيام الصبا والشباب	١٣
الفصل الثالث	: التأهيل للميدان الافريقى . . .	٢٥
الفصل الرابع	: أمير القيروان	٣٣
الفصل الخامس	: الجناح الأيسر للاسلام	٥١
الفصل السادس	: نافذة على الأندلس	٦٣
الفصل السابع	: القيادة الجماعية	٧٥
الفصل الثامن	: أستاذ الفن الحربى	٩١
الفصل التاسع	: موكب النصر	١١٣
المراجع	:	١٣٩

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمــد عبده	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	على ادهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبـد الرحمن بن خلدون ...	د . على عبد الواحد وافى
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معــاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ـ سـيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	أمين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبـرى	د . احمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفـارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	. سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ـ الأصمعى	. أحمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا أحمـد	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الـكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عبـاد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ النـاصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ أحمـد زكى	أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثه الشيبانى ...	عقيد محمد فرج

٣٢ — مظفر الدين كوكبورى ... عبد القادر احمد
٣٣ — رشيد رضا ... ... د . ابراهيم احمد العدوى
٣٤ — اسحاق الموصلى ... ... د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ — ابو حيان التوحيدى .. .. د . زكريا ابراهيم
٣٦ — ابن المعتز العباسى ... ... د . احمد كمال زكى
٣٧ — الرهاوى ... ... د . ماهر حسن فهمى
٣٨ — أبو العلاء المعرى ... ... د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ — احمد لطفى السيد ... ... د . حسين فوزى النجار
٤٠ — الجوينى امام الحرمين ... د . فوقية حسين
٤١ — صلاح الدين الايوبى ... ... د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ — عبد الله فكرى ... ... محمد عبد الغنى حسن
٤٣ — عبد الله بن الزبير ... ... د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ — عبد العزيز جاويش ... ... أنور الجندى
٤٥ — ابن رشيد القيروانى .. ... عبد الرءوف مخلوف
٤٦ — محمد عبد الملك الزيات ... محمود خالد الهجرسى
٤٧ — حفنى ناصف ... ... محمود غنيم
٤٨ — أحمد بن طولون ... ... د . سيدة اسماعيل الكاشف
٤٩ — محمود حمدى الفلكى ... ... أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ — أحمد فارس الشدياق ... ... محمد عبد الغنى حسن
٥١ — المهدى العباسى ... . د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ — الأشرف قانصوه الغورى ... د . محمود رزق سليم
٥٣ — رفاعه الطهطاوى ... ... د . حسين فوزى النجار
٥٤ — زرياب ... ... د . محمود احمد الحفنى
٥٥ — الكندى « المؤرخ » ... ... د . حسن احمد محمود
٥٦ — ابن حزم الاندلسى ... ... د . زكريا ابراهيم
٥٧ — ابن النفيس ... ... د . بول غليونجى
٥٨ — السيد احمد البدوى ... ... د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ — المأمون ... ... د . محمد مصطفى هداره
٦٠ — المقرى ... ... محمد عبد الغنى حسن
٦١ — جمال الدين الافغانى .. ... عبد الرحمن الرافعى
٦٢ — الجاحظ ... ... د . احمد كمال زكى
٦٣ — ابن ماجد ... ... د . انور عبد العليم
٦٤ — محمد توفيق البكرى ... ... د . ماهر حسن فهمى
٦٥ — محمود [illegible] البارودى ... د . على محمد الحديدى
٦٦ — ابن زيدون ... ... على عبد العظيم
٦٧ — [illegible] د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ — موسى بن نصير ... ... د . ابراهيم أحمد العدوى